جامعة محمد بوضياف - المسيلة
سلسلة الكتب الأكاديمية
كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

محاضرات أوروبا في العصور الوسطى

أ.د : عبد الغني حروز - قسم التاريخ

ISBN: 978-9931-251-10-1

ديسمبر 2022

جامعة محمد بوضياف المسيلة

سلسلة الكتب الأكاديمية

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

محاضرات أوروبا

في العصور الوسطى

أ.د/ عبد الغني حروز

قسم التاريخ

ديسمبر 2022

ISBN: 978-9931-251-10-1

بسم الله

الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: محاضرات أوروبا في العصور الوسطى

اسم المؤلف: أ.د/ عبد الغني حروز.

سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة محمد بوضياف المسيلة

طبعة أولى: 11 ديسمبر 2022 / **17** جمادى الأول 1444هـ

ردمك: 978-9931-251-10-1

عدد الصفحات: 48 صفحة

الناشر: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة محمد بوضياف المسيلة

إيميل: https://www.univ-msila.dz

العنوان: حي إشبيليا- جامعة محمد بوضياف بالمسيلة – الجزائر.

الأراء الواردة في الكتاب تعبر عن أراء صاحبها

جميع الحقوق محفوظة

إهداء

إلى روح اختي الطاهرة

جميلة حروز

رحمها الله

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'enseignement supérieur et de la recherche scientifique

Université Mohamed Boudiaf - M'sila
Vice Rectorat de la Formation Supérieure de Troisième Cycle l'Habilitation Universitaire la Recherche Scientifique et la Formation Supérieure de Post-Graduation

جامعة محمد بوضياف – المسيلة
نيابة مديرية الجامعة للتكوين العالي في الطور الثالث
تأهيل الجامعي والبحث العلمي والتكوين العالي فيما بعد التدرج

وثيقة إثبات الدروس على الخط (Cours Online)
(خاصة فقط بالأساتذة الدائمين لدى جامعة المسيلة)

كلية / معهد: العلوم الانسانية والاجتماعية قسم: التاريخ

اللقب: حرود الاسم: عبد الغني

التخصص: تاريخ وسيط Spécialité:

عنوان المطبوعة: محاضرات في أوربا في العصور الوسطى Intitulé de Polycopier :

تأشيرة مسؤول الموقع الالكتروني للكلية / (ختم وتوقيع):

تمت المراقبة على المطبوعة البيداغوجية في جلسة المجلس العلمي للكلية بتاريخ 2017/01/18

تأشيرة مدير مركز الشبكات وأنظمة الإعلام – الموقع الالكتروني للجامعة / (ختم وتوقيع):

LAKHDARI Abdella

حرر بالمسيلة في: 2017/02/13

ملاحظة: - هذه الوثيقة خاصة بالأساتذة المناقشين للدكتوراه ولا يمكن استلام الشهادة إلا بعد تقديم هذه الاستمارة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

Université De Mohamed Boudiaf
à M'sila
Faculté des Sciences Humaines et
Sociales

جامعة محمد بوضياف
- المسيلة -
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

الرقم: 49/ك.ع.إ.إج/2017

المسيلة في: 18 جانفي 2017

مستخرج من محضر المجلس العلمي للكلية
- لجلسة يوم 2017/01/18 -
بخصوص الموافقة على المطبوعة البيداغوجية

اجتمع المجلس العلمي للكلية في دورته الاستثنائية بتاريخ: 2017/01/18 ووافق على المطبوعة البيداغوجية:

للأستاذ(ة): حروز عبد الغني .

الرتبة: أستاذ محاضر "ب".

عنوان المطبوعة: محاضرات أوروبا في العصور الوسطى .

الفئة المستهدفة: طلبة السنة الثانية ليسانس .

رئيس المجلس العلمي للكلية

Faculté des Sciences Humaines et Sociales
BP. 166 Rue ichbilia- M'sila
télé /fax: 035.54.02.43

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
ص ب. 166 اشبيليا- المسيلة
الهاتف/فاكس: 035.54.02.43
الموقع الإلكتروني: http : // virtuelcampus.univ-m'sila.dz/moodle

حروز عبد الغني أستاذ محاضر "ب "
(قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف – المسيلة–)

بداية العصور الوسطى الأوروبية.

العصور الوسطى الأوروبية مصطلح أطلقه مؤرخو العصر الحديث في أوروبا، و يقصدون من وراء هذه التسمية تلك المرحلة التاريخية الأوروبية التي تمتد من سنة 476م التي تمثل تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب إلى غاية القرن 15م؛ أي نهاية العصور الوسطى، و التي يعتمد المؤرخون الأوروبيون فيها على سنة 1492م و التي تتوافق مع الغزوات– الكشوفات– الجغرافية التي قام بها **كريستوف كولومبس**، كما تتوافق مع نهاية حروب الإسترداد في الأندلس، بينما نجد البعض منهم يفضل سنة 1453م و التي تتوافق مع سقوط مدينة القسطنطينية على يد العثمانيين، و التي تمثل بالنسبة لهم نكبة كبرى للمسيحية.[1]

إذن فمصطلح العصور الوسطى يطلق على القرون العشرة الواقعة بين سقوط **الإمبراطورية الرومانية**[2] في الغرب في النصف الثاني من القرن الخامس و ظهور حركة النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر.[3] و قد استعملت كلمة العصور الوسطى لأول مرة من طرف **فلافيو بيوندي دو فورلي** الذي كان سكرتيرا كنسيا في روما و ذكرها في كتابه" **حقب تاريخية من سقوط الإمبراطورية الرومانية** " الذي صدر سنة 1483م. ففي هذا الكتاب يذكر المؤلف فكرة وضع بين قوسين في الزمن مرحلة تمثل توقف التقدم و تمثل الركود الثقافي أسماها بالعصر الوسيط، و هذه

[1] – نعيم فرح: **الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى**، ط2، منشورات جامعة دمشق، سوريا،2000،ص:07؛ جمال الدين فالح الكيلاني: **في التاريخ الأوروبي الوسيط**، مكتبة المصطفى للدراسات و النشر، القاهرة،2011،ص:02.

[2] – **الإمبراطورية الرومانية**: أعظم وحدة حضارية و سياسية عرفها التاريخ، إذ لم يقدر لإمبراطورية أخرى في تاريخ البشر القديم أو الحديث أن تبلغ ما بلغته الإمبراطورية الرومانية، ذلك أنها ضمت جميع مراكز الحضارات القديمة من المحيط الأطلسي غربا حتى الفرات شرقا، اتخذت من مدينة روما عاصمة لها سقطت على يد القبائل الجرمانية سنة 476م . ينظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**،دار النهضة العربية، بيروت،1986،ص 06.

[3] – محمد محمد ناصر حداد: **قراءات في تاريخ العصور الوسطى**،مجلة جامعة الناصر،العدد الرابع،يوليو–ديسمبر 2014،ص:370.

المرحلة حددها بين التاريخ الكلاسيكي القديم و بين بدايات النهضة في العصور الأوروبية الحديثة.[1] و قد قام المؤرخون بتقسيم العصور الوسطى إلى ثلاث فترات:

1- المرحلة الأولى: يطلق عليها اسم العصور الوسطى العليا من القرن 05 الميلادي إلى القرن 10 الميلادي. و يتوافق ذلك مع الغزوات الجرمانية.

2- المرحلة الثانية: يطلق عليها اسم عصر الانتصارات من القرن 11م إلى القرن 13م، و يتوافق مع الحروب الصليبية و تطور نظام الإقطاع.

3- المرحلة الثالثة: يطلق عليها اسم العصور الوسطى الدنيا و هو زمن الكاتدرائيات و العصور المظلمة و الذي يحمل معه نهاية العصور الوسطى.[2]

و هناك من المؤرخين من أطلق عبارة العصور الوسطى المظلمة على المرحلة الأولى من العصور الوسطى لما سادها من حروب و غزوات و هرطقات دينية.[3] و في هذا الصدد يقول المؤرخ إدوارد جيبون:" إنه في حكم المستحيل أن تحرز الإنسانية أي تقدم في هذا العهد المضطرب".[4]

و على أية حال فالمدخل الطبيعي لدراسة العصور الوسطى هو تحديد بدايتها، و هو أمر صعب دار حوله جدل كبير و اجتهد كل باحث غي إيضاح وجهة نظره حول بداية العصور الوسطى، و فيما يلي عرض لأهم الآراء حول بداية هذه العصور:

1- يعتقد بعض المؤرخين أن العصور الوسطى تبدأ بجلوس الإمبراطور الروماني **دقلديانوس (284-305م)** على عرش الإمبراطورية، و يرجع ذلك إلى أن هذا الإمبراطور قام بإعادة تنظيم الإمبراطورية على أسس إدارية اختلفت كثيرا عن الأنظمة التي سادت الإمبراطورية من قبل، كما أنه ترك مدينة **روما** عاصمة الإمبراطورية و استقر في أسيا الصغرى، و اتخذ من مدينة **نيقوميديا** مقرا له، يضاف إلى ذلك أن دقلديانوس كان ملكا من النوع الشرقي القديم مستبدا مطلقا، و يضفي على شخصيته مظاهر الألوهية و التقديس و اضطهد الديانة المسيحية و المسيحيين أكبر اضطهاد و هدم الكنائس و نفى المسيحيين و حرق الأناجيل، و قد ظهرت هذه النزعة بشكل جلي في

---

[1] – فالح الكيلاني: المرجع السابق،ص:02، 03.

[2] – نعيم فرح: المرجع السابق،ص: 11- 14.

[3] – محمود سعيد عمران: **معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، دار المعرفة الجامعية،مصر،1986،ص:15.

[4] – نعيم فرح: المرجع السابق،ص:11، 12.

مصر حتى عرف عصره **بعصر الشهداء**، و منه أصبحت سنة **284م** هي السنة التي يبدأ منها التاريخ القبطي في مصر، و أيضا يعتقدون أنه لما كانت المسيحية قد اعترف بها بعد نهاية حكم دقلديانوس بفترة قصيرة، و لما كانت المسيحية من معالم العصور الوسطى فمن هنا كانت وجهة نظر هؤلاء المؤرخين تبدوا مقبولة و معقولة في جعل هذه السنة بداية للعصور الوسطى.[1]

2– كذلك اعتقد بعض المؤرخين أن سنة **323م** و التي تولى فيها الإمبراطور **قسطنطين الأول** (**305–337م**) حكم الإمبراطورية الرومانية هي بداية العصور الوسطى، إذ تم في عهده الاعتراف بالدين المسيحي **–** عندما أصدر **مرسوم ميلان سنة 313م** – دينا رسميا للإمبراطورية الرومانية بعد أن كان دينا للأقلية المضطهدة ، كما قام بنقل العاصمة من روما إلى مدينة **القسطنطينية** – بنيت على بقايا مدينة **بيزنتيوم**–، و كان ذلك تفريقا بين القسمين الشرقي و الغربي من الإمبراطورية و بداية لإنشاء الإمبراطورية البيزنطية.ثم إصلاحاته المتعددة في جميع الجوانب التشريعية و العسكرية و الإدارية.[2]

3– و هناك من المؤرخين من يعطي أهمية للجانب الديني و ينظر له على أنه بداية العصور الوسطى، حيث يتخذ البعض المرحلة التي تحولت فيها بعض العناصر الجرمانية و هم **القوط**[3] من الوثنية إلى المسيحية، و إن كانت على المذهب الأريوسي، و يضعون سنة **376م** بداية لهذا التحول و هي السنة التي بدأ فيها المبشر **أولفيلاس** (**310–383م**) بالتبشير في القوط الذين ما لبثوا أن دخلوا أراضي الإمبراطورية و أقاموا دولا كانت علامة بارزة في تاريخ أوربا في العصور الوسطى.

---

[1] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص:16-23؛ سعيد عمران:المرجع السابق،ص :15، 16؛ فالح الكيلاني: المرجع السابق،ص: 03.

[2] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 23-25؛ سعيد عمران:المرجع السابق،ص: 16؛ فالح الكيلاني: المرجع السابق،ص:03، 04.

[3] – **القوط**: قبائل جرمانية شرقية أرجح الآراء أنهم قدموا من إسكندنافيا إلى وسط القارة الأوروبية، لكن يبقى الخلاف على أصولهم و البلاد التي قدموا منها قائما إلى اليوم، كان للقوط تأثير قوي في تاريخ أوروبا السياسي و الثقافي في القرن الأول الميلادي هاجرت قبائل القوط جنوبا إلى فيستولا– إحدى امدن بولندا حاليا– و استقروا في سيكثيا– إحدى مدن كرواتيا حاليا– التي أطلقوا عليها اسم " أوم" و تعني مدينة الماء، و في القرن الثاني الميلادي اتخذوا من مدينة أرهيمار عاصمة لمملكتهم الناشئى، انضم إليهم العديد من القبائل الرعوية المقاتلة، و كان لهم هيبة و رهبة بين القبائل ربما لأنهم كانوا يقدمون أسرى المعارك أضاحي لآلهم " تايز". و في القرن الثالث الميلادي انقسم القوط إلى فرعين أساسيين: القوط الشرقيين و القوط الغربيين ، و في القرن الرابع الميلادي اعتنق بعض القوط المسيحية و لتخذوا الأريوسية مذهبا لهم. ينظر: إبراهيم علي طرفان: **دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى– دولة القوط الغربيين–**، مكتبة النهضة العربية،القاهرة،1958م، ج1،ص01-23.

4– و هناك بعض المؤرخين من يضع حكم الإمبراطور **ثيودوسيوس** (**379–395م**) نقطة البداية للتاريخ الوسيط و يحددون سنة **379م** لتكون نهاية للتاريخ القديم و مرجع ذلك إلى:

– أن الإمبراطور ثيودوسيوس قضى على العناصر الوثنية و على أتباع المذهب الأريوسي.

– أن الإمبراطور قسم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين بين أبنائه، فعين **أركاديوس** (**395–407م**) على القسم الشرقي– القسطنطينية–، بينما عين ابنه الآخر **هونوريوس** (**395–423م**) على القسم الغربي– روما، و بذلك أصبح كل قسم دولة؛ بمعنى آخر أن ذلك كان بداية دولة في الشرق عرفت باسم **الإمبراطورية البيزنطية**[1] عاصمتها القسطنطينية و التي استمرت حتى سنة 1453م.[2]

5– بينما ترى مجموعة أخرى من المؤرخين أن معركة **أدرنة** – أو **أدريانوبل**[3] كما تعرف في الغرب– التي دارت رحاها سنة **378م** تصلح لتكون نهاية للتاريخ القديم و بداية العصر الوسيط، و يعللون وجهة نظرهم بأن القوط الغربيين بعدما عبروا نهر **الدانوب** استقروا في كل من **مواشيا** و **تراقيا** فضاقت عليهم هذه المناطق فدخلوا في صراع مع الإمبراطورية الرومانية و حاربوها و انتصروا عليها في معركة أدرنة، و هي المعركة التي أنهزم فيها أحد أباطرة الإمبراطور و هو **فالنس** (**364–378م**) فكانت هزيمة ساحقة، و كان لهذه المعركة نتائج و آثار كبيرة، منها مقتل الإمبراطور ثيودوسيوس على يد الجرمان و الذي يعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية.[4]

6– و هناك من الباحثين من ينظر إلى سنة **410م** على أنها بداية الفاصلة للعصور الوسطى الأوروبية، و ذلك نتيجة سقوط مدينة روما بيد القوط الغربيين بقيادة ملكهم **ألاريك** حيث قاموا بغزو ايطاليا و زحفوا على مدينة روما و اقتحموها، بينما لجأ الإمبراطور هونوريوس إلى مدينة **رافنا** و اتخذ منها عاصمة له.

---

[1] – **الإمبراطورية البيزنطية**: دولة عظيمة لعبت دورا هاما في التاريخ كقوة سياسية و حربية لقرون طويلة، و كمركز حضاري و ثقافي، اتخت من مدينة القسطنطينية عاصمة لها دامت من 324م و حتى 1453م حيث سقطت على يد السلطان العثماني محمد الفاتح. للمزيد ينظر: حسنين محمد ربيع: **دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية** ، دار النهضة العربية،القاهرة،1983،ص07-11.

[2] – سعيد عمران:المرجع السابق،ص :17، 18؛ فالح الكيلاني: المرجع السابق،ص:04؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 26، 27.

[3] – للإطلاع أكثر عن حيثيات هذه المعركة ينظر: جوزيف داهموس: **سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى**، ترجمة محمد فتحي الشاعر،ط2،الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر،1992،ص7 و ما بعدها.

[4] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 28؛ سعيد عمران:المرجع السابق،ص: 18.

7– يرى العديد من المؤرخين في سنة **476م** نهاية لتاريخ الإمبراطورية الرومانية و بداية تاريخ العصور الوسطى، و ذلك نظرا لعدة اعتبارات منها:

– لأنها السنة التي تمكن فيها **أودواكر** زعيم **الهرول**– إحدى العناصر الجرمانية– من دخول مدينة رافنا و عزل الإمبراطور الغربي **رومولوس أغسطس** (**475–476م**).

– في هذه السنة تم إرسال صولجان الإمبراطورية الغربية من مدينة روما إلى الإمبراطورية الشرقية، و انتهت بذلك الإمبراطورية الغربية لتحل محلها سلطة الكنيسة من جهة و العناصر الجرمانية من جهة أخرى.

– انتهاء التاريخ الروماني و ذلك لانتهاء حكم الأباطرة الرومان في القسم الغربي من الإمبراطورية.[1]

8– و تشير مجموعة أخرى من المؤرخين إلى الإمبراطور **جستينيان** (**527–565م**) على اعتبار أن عهده يفصل بين القديم و الوسيط، و يعلل المؤرخون وجهة نظرهم هاته بالأعمال الكبيرة التي قام بها جستينيان في الداخل و الخارج من بينها:

– أنه قدم للإمبراطورية تشريعات ظلت باقية لفترة طويلة من الزمن.

– صاحب عصره حركة معمارية كبيرة ظل بعضا إلى يومنا هذا.

– قام بمحاولات عسكرية لإعادة أراضي الإمبراطورية و بخاصة في استرداد شمال إفريقيا من **الوندال**، و ايطاليا من **القوط الشرقيين**، و اسبانيا من **القوط الغربيين**، و لما كانت محاولته هذه تعتبر آخر محاولة قام بها إمبراطور روماني، فإن ما حدث يعتبر نهاية لمجد الإمبراطورية الرومانية لأن خلفائه من بعده فشلوا في الحفاظ على هذه الأراضي، و على ذلك يعتبر عصره مرحلة جديدة تنقلنا إلى عصر جديد هو عصر التاريخ الوسيط.[2]

بعد عرض أهم الآراء التي درات حول بداية العصور الوسطى الأوروبية، نستطيع القول أن لكل من هذه الآراء ما يؤيدها، كما يمكن أن نؤكد على أن هناك عوامل متداخلة أثرت بشكل أو بآخر في تحول المجتمع الأوروبي إلى التاريخ الوسيط، و على أية حال فإنه إذا تمعنا في الآراء التي سبق عرضها نجد أن القرن الرابع الميلادي قاسما مشتركا في كثير من الحالات، حيث لاحظنا أن هذا

[1] – فالح الكيلاني: المرجع السابق،ص:04، 05؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 28؛ سعيد عمران:المرجع السابق،ص: 19، 20.

[2] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 16، 17.

القرن شهد تغيرات سياسية و حضارية كان لها الأثر الكبير في تحول المجتمع الأوروبي إلى العصر الوسيط و من ذلك:

– الاعتراف بالديانة المسيحية دينا للدولة في مرحلة أولى ثم الاعتراف بها دينا رسميا للإمبراطورية.

– ظهور الغزوات الجرمانية التي اجتاحت أوروبا و هذا ما أدى إلى ضعف و انحطاط الإمبراطورية.

– التقسيم الإداري الذي فصل القسم الشرقي عن القسم الغربي من الإمبراطورية الذي أدى إلى تشتيت قوة الإمبراطورية.

و عليه يمكن اعتبار نهاية القرن الرابع الميلادي مدخلا لتاريخ أوروبا في العصور الوسطى، و على هذا الأساس و اعتمادا على هذا الرأي فإن العصور الوسطى الأوروبية تمتد ما بين القرن 05 الميلادي و القرن 15 الميلادي.

أوضاع الإمبراطورية الرومانية حتى أواخر القرن 3م

على الرغم من حالة التفوق الحضاري الذي كانت تتمتع به الإمبراطورية الرومانية، إلا أن الانقسام و الأوضاع المتردية كانت قد استفحلت منذ نهاية القرن **1 ق.م** إلى الحد الذي جعل منها مشكلة عصية الحل، و فيما يلي عرض لأهم الأوضاع التي كانت تعيشها الإمبراطورية الرومانية حتى أواخر القرن **3م**:

1– الأوضاع السياسية: إن المتتبع للتدرج التاريخي للنظام السياسي الروماني، يفصح عن مدى التحولات و التطورات التي طرأت عليه بين نظام ملكي و الذي ظهر خلال مرحلة تأسيس مدينة روما سنة **754ق.م** وصولا إلى سنة **509ق.م** حيث بدأ النظام الجمهوري، الذي يعد أصل و المرتكز الذي يقوم عليه النموذج الروماني في الحكم، فيما فرضت التطورات السياسية خلال عهد **أوكتافيوس** سنة **27ق.م** ليظهر النظام الإمبراطوري الذي برز من تجليات العلاقة السياسية، و كان الأبرز فيه فترة الإمبراطورية الدستورية التي استمرت إلى سنة **284م** حيث انتهى الحكم الدستوري

خلال عهد الإمبراطور **دقلديانوس**، ليظهر الحكم المطلق الذي استمر حتى نهاية حكم **جستنيان** سنة **565م**.

و خلال هذه الفترة تركزت السلطات بيد الإمبراطور بشكل مباشر و صارت له صلاحيات واسعة، و أصبح يتدخل في جميع شؤون و مرافق الدولة بداء من مؤسسة الجيش وصولا إلى مجلس الشيوخ، و الأهم من هذا أن الإمبراطور غدا هو مصدر السلطات فهو لا يخضع لا للقانون و لا للإرادة الشعبية، و الظاهرة الأبرز أيضا تمثلت في استقرار التداول في المناصب العليا بين فئة بعينها– طبقة الأشراف– التي أصبحت تمثل الشعب الروماني في مجلس الشيوخ، فنزعت و حددت صلاحياتها و أصبحت خاضعة بشكل مباشر إلى إرادة الإمبراطور، بل الملفت للنظر أنها استبدلت دورها من التشريعي إلى التنفيذي، حيث عدت أداة تنفيذ القرارات الإمبراطورية، و لابد من الإشارة هنا إلى نفوذ قادة الجيش الذي لم يغب عن الساحة السياسية لكنه نفوذ كان يخضع لرغبة التسابق نحو إرضاء رغبات الإمبراطور، في سبيل الإبقاء على المراكز و الحصول على مكانة أكثر رفعة و سموا.

كما كان الطريق إلى النفوذ يمر من خلال شراء المناصب، التي تتيح للمتحصل عليها الكثير من الامتيازات و القوة، و هكذا أصبح الثراء و المال الطريق الأوحد نحو تشكل طبقة من السياسيين الذين سيطروا على الجهاز الإداري في الإمبراطورية، لينتج عن هذا الأمر ضعف و هزال واضح في الكفاءة و الأداء فقد بات مجلس الشيوخ في العاصمة روما يعاني من الترهل و سوء التدبير و انعدام المبادرة في مواجهة الأزمات، باعتبار أن أغلب أعضائه قد وصلوا إلى مناصبهم عن طريق المال و النفوذ العائلي، و ليس لاعتبارات المهارة أو الخبرة أو الكفاءة الشخصية.[1]

2– الأوضاع العسكرية: كانت الظاهرة الرئيسية في عهد الإمبراطور **كومودوس ابن ماركوس أوريليوس** التي امتدت إلى ما يزيد عن مائة سنة، ما صار للجيش من سلطة يتحكم في مصير الدولة كيفما يشاء، فالجيش الذي كان خادم للإمبراطورية، أضحى سيدها فصارت بيده السلطة عن طريق الأباطرة الذين يعينهم و يعزلهم حسب أهوائه و من غير سبب واضح، و لم يهتموا إلا بمصالحهم الخاصة، و منه أصبحت الإمبراطورية الرومانية متاعا للجند. إذا صار من الواضح

[1] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص:10 و ما بعدها؛ محمد ممدوح مصطفى: **القانون الروماني**، دار المعارف، القاهرة،1961،ص:20.

التدخلات التي كان يعمد إليها قادة الجيش في الشؤون الداخلية خصوصا بعد حالة التوقف في الحملات العسكرية، ليتطلع القادة نحو استغلال نفوذهم ليتم لهم التدخل في شؤون الإمبراطورية.
و قد تجلى تدخل الجيش في شؤون الإمبراطورية بشكل واضح، حتى غدا الإمبراطور نهبا لأطماعهم و رغباتهم، إذ تشير الحوادث التاريخية إلى أن فترة خمسين عاما فقط قد تعرض فيها **25** إمبراطورا إلى القتل من قبل قادة الجند و هي الفترة **235–285م**، باستثناء إمبراطور واحد مات ميتة طبيعية.[1]

كما كان لإصرار الرومان في الإبقاء على **التقاليد العسكرية الرومانية** و الوفاء المثير للشفقة بالنسبة لسلاح المشاة يفسر و إلى حد بعيد الكثير من الأمور العالقة، فعلى الرغم من الأحداث التي أسفرت عن فشل سلاح المشاة الروماني في مقارعة فرسان الجرمان؛ إلا أن المشاة بقي السلاح المفضل لديهم لاعتبارت تتعلق بحالة الغرور و التأكيد على مسألة التفرد التي تغنى بها الرومان، هذا التغني بالمنجزات القديمة من دون أي تجديد أو تعديل استمر طيلة **03 قرون**، أدى إلى الفساد و صار الفرد العسكري الروماني يبحث عن البديل الذي وجده في العناصر البربرية، لتبرز حالة التراخي داخل الجيش الروماني الذي اعتمد على الآخر، فيمال نال البرابرة الخبرة و الكفاءة و التدريب على حمل السلاح، و هكذا صار الاعتماد على الآخر أهم المقومات التي تقوم عليها منظومة الفعاليات داخل الإمبراطورية الرومانية.[2]

هذه الأحوال الداخلية لم تهيأ للإمبراطورية الفرصة للانتصار على أعدائها في الخراج، حيث عانت الإمبراطورية من التهديد الخارجي، الذي يظهر في الهجمات المتكررة من قبل **الجيوش الفارسية و القبائل الجرمانية**، فعلى صعيد الحدود الأوروبية و عند نهري الراين و الدانوب حاول الجرمان بمقدرات السيادة الرومانية بل مثلوا التهديد الأخطر للأمن و الاستقرار، و قد تفاقمت فعاليتهم خلال عهدي الإمبراطورين **كلوديوس** و **فاليريان**، حيث أثبتت الوقائع عجز روما عن

[1] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص :12، 13؛ ول وايريل ديورانت: **قصة الحضارة (قيصر و المسيح أو الحضارة الرومانية)**، ترجمة محمد بدران،دار الجيل،لبنان،ب.ت، ج11،ص335.

[2] – أندريه إيمار و جانين أوبوايه: **تاريخ الحضارات العام (روما و امبراطوريتها)** ، نقله للعربية: فريد م داغر و فؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، بيروت–باريس،1986،ص: 525، 526؛إسماعيل نوري الربيعي: **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، ط1،درا شموع للثقافة و النشر و التوزيع،الجزائر،2001،ص– ص :12–14

التصدي لهذه الهجمات. أما في المجال الأسيوي فقد مثل **الفرس** شوكة الجنب، بحكم الهجمات المتكررة التي كانوا يقومون بها على الأقاليم الرومانية، و قد بلغت المواجهات من الحدة و القوة إلى أن تمكن الملك الساساني **سابور الأول** من أسر الإمبراطور الروماني فاليريانوس.[1]

3– الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية (عهد الفوضى الاقتصادية) : مثلت **أزمة القرن الثالث الميلادي** أزمة عنيفة اجتازت الإمبراطورية الرومانية، و ترجع أسبابها إلى ما ساد في الشطر الثاني من القرن الثاني للميلاد من تدني و انحطاط للأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية.

كان لظاهرة تسرب الأموال و الإنفاق في مجالات عالية التكاليف الأثر الكبير في حدوث أزمة القرن 3م . خصوصا و أن الحملات العسكرية قد أرهقت ميزانية الإمبراطورية إلى حد بعيد، يضاف إلى ذلك الإقبال الواسع و الكبير على استيراد التوابل و الحرير هاتين البضاعتين التي أولع بها أشراف روما إلى حد الهوس، كما يعزى ذلك إلى المتطلبات التي فرضتها حياة الترف و الاتجاه نحو الكماليات و المظاهر نزيفا اقتصاديا يصعب السيطرة عليه، حيث تطلع الأثرياء إلى حيازة الذهب و المعادن النفيسة لاستخدامه في مجال الزينة و الاستعراضات الاجتماعية. و إزاء هذه الأوضاع برزت ظاهرة التضخم التي قرضت قسماتها القاسية و المريرة على الطبقة الدنيا داخل جسد الإمبراطورية. و في ظل هذه الأوضاع لم يعد أمام الإدارة السياسية سوى التوجه نحو فرض الضرائب المرهقة على الفلاحين و الحرفيين و طائفة التجار لينجم عن هذا ركود في الفعاليات الاقتصادية انعكست آثاره على العملة الرومانية التي باتت تعاني من انخفاض قيمتها.

– أما من الناحية الاجتماعية فقد كان نظام الطبقات يشير إلى تمايز واضح بين أفراد المجتمع، إذ تركز النفوذ بيد **طبقة الأشراف–النبلاء–** الذين اقتربوا من مؤسسة الإمبراطور بشكل قوي على حساب العاقة بالطبقات الأخرى.و في ظل هذا الوضع حاولت الإمبراطورية عزل الارستقراطية عن المساهمة و المشاركة في الحياة العامة، على اعتبار أن المكانة المتميزة و التي يحظى بها رجال الجهاز

[1] – ديورانت : المرجع السابق، ص:339، 340؛ إيمار و أوبوايه: المرجع السابق،ص– ص:527– 530 ؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص:16، 17.

الحكومي، لا يتيح لهم التنازل للعمل في أعمال عدت هي الأدنى مثل التجارة أو الأعمال الحرفية و كذا الاختلاط بطبقة العامة .[1]

يضاف إلى ذلك أنه إلى جانب الطبقات العليا في المجتمع الروماني، كانت هناك طبقة **– طبقة العبيد–** أخرى تعيش في القرى و الأرياف ازداد إحساسها و اعتزازها بنفسها، و أدركت كثرة عددها و أهميتها، كما زاد إحساسها بانحطاط مكانتها الاجتماعية، و قد أسهم أباطرة القرن **01م و 02 م** في تنمية ما لدى هذه الطبقة من شعور ذاتي، و رغم ما وضع من تشريعات قانونية لتصحيح أوضاع العبيد، لاسيما في مجال العقوبات الكيفية التي كان يمارسها السادة بحقهم؛ في منح العبيد بعض الاستقلالية في مجال الإنتاج الزراعي بمنحهم قطع أراضي يشرفون عليها، إلا أن هذه العملية لم تكن لصالح العبيد بقدر ما كانت تصب لصالح النبلاء.و هذا ما أدى إلى بروز صراع بين العبيد و سادتهم تمثل في العديد من الثورات التي شهدتها الإمبراطورية الرومانية منها على سبيل المثال لا الحصر: **ثورة سيسيليا 138–132ق.م.**[2]

4– الأوضاع الدينية: تظافرت جملة من العوامل في تفاقم الأوضاع الدينية داخل الإمبراطورية الرومانية، حيث شهد القرن الثالث الميلادي انتشار **الديانة المسيحية** في الأقاليم الرومانية، و قد كان لسياسة القمع و البطش التي تعامل بها الرومان مع الرعايا المسيحيين أثره الواضح في تفكك عرى العلاقات بين المركز و الأطراف، حيث لم تعد العلاقة مبنية على الولاء للعاصمة روما، و هذا ما جعل الطبقة الارستقراطية في العاصمة تنظر في الدين الجديد على أنه تهديد مباشر لنفوذها و مصدر سلطاتها داخل الإمبراطورية.و في ظل حالة القلق و الخراب النفسي التي كانت تعاني منها الطبقات الدنيا مثلت المسيحية نوعا من التطهر و الخلاص النفسي، باعتبار دعوتها إلى المساواة بين الجميع أمام الله، و على الرغم من أن هذه الفكرة كانت تمس **الديانة الوثنية الرسمية** للإمبراطورية، إلا أنها في البداية تم التغاضي عنها و أهملت آثارها. لإلى أن اصطدمت بفكرة عبادة الإمبراطور و تأليهه. ليسفر عن هذا صداما حاداً و عنيفاً بلغ أشده خلال فترة حكم الإمبراطور **دقلديانوس**. و

[1] – السيد الباز العريني: **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية،بيروت،1968،ص15، 16؛ ديورانت : المرجع السابق، ص:340، 341؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص:15، 16؛ إيمار و أوبوايه: المرجع السابق، ص: 533؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص:16، 17.

[2] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص :17؛ الباز العريني: المرجع السابق،ص:15؛ إيمار و أوبوايه: المرجع السابق،ص:535.

قد قيض للمسيحية أن تتبوأ مكانة مهمة في أقاليم الإمبراطورية الرومانية اعتماداً على جملة من العوامل، من بينها استخدام لغة أقرب للفهم و التقبل من قبل العامة، و هي اللغة الآرامية، و كذلك حالة الاضطهاد الذي تجرعه المسيحيون على يد السلطات الرسمية و الصمود الذي نال إعجاب الناس و حفز لديهم السؤال حول أهمية هذه العقيدة.و في ظل هذا الاتجاه من المعتقدات الدينية الشديدة المراس، لم تجد السلطات الرومانية بداً من اتخاذ أسلوب القمع و البطش و الاضطهاد المباشر للمسيحيين، حيث عمد الإمبراطور **نيرون** إلى اتهامهم بإحراق مدينة روما سنة **64م**، و اعتبر الإمبراطور **تراجان 98م** المسيحية جريمة يعاقب عليها القانون، كما تطلع الإمبراطور دقلديانوس نحو اضطهاد المسيحيين سنة 303م بسبب دعوته إلى عبادة الشمس، كما واصلت الجهات الرسمية نسبتها للمسيحيين كل ما يمكن أن يشوه صورتهم.[1]

ظهور المسيحية و موقف الإمبراطورية الرومانية منها.

1- ظهور المسيحية:

المسيحية هي الرسالة السماوية التي أنزلت على النبي **عيسى ابن مريم** عليه الصلاة و السلام، و كان نزولها أثناء عهد الإمبراطور **أوغسطس** (**ت 14م**) في بيت لحم بفلسطين، و جاءت هذه الديانة مكملة لرسالة النبي **موسى** عليه الصلاة و السلام و متممة لما جاء في التوارة من تعاليم، و كانت موجهة لبني إسرائيل بعد أن انحرفوا وزاغوا عن شريعة موسى عليه السلام.[2]

جاءت هذه الديانة في وقت أخذ العالم الروماني يشعر بنوع من الفراغ أو الجدب الروحي و العاطفي نحو الديانة الوثنية، إذ سئم الرومان من عبادة الدولة و عبادة الأباطرة و لم يستطع عامة الناس من فهم الفلسفة اليونانية ذات المنطق العقلي الجاف، يضاف إلى ذلك تحلل النظام الاجتماعي القائم على أسس طبقية (**الأسياد–العبيد**) مما جعل الناس يلتمسون في المسيحية التي

[1] – إيمار و أوبوايه: المرجع السابق ، ص: 536، 637؛ نوري الربيعي:المرجع السابق،ص– ص:14-16.

[2] – سامي بن عبد الله أحمد المغوث: **أطلس الأديان**،ط1،مكتبة العبيكان، الرياض،2007،ص:173.

تدعوا إلى البساطة و تطهير النفس مخرجا لهم من هذه الحياة، لذا فقد انتشرت المسيحية في الولايات التي تقع في حوض بحر الروم– البحر الأبيض المتوسط–؛ و لم يكد ينتهي القرن الأول الميلادي إلا و كانت كل ولاية رومانية تضم جالية مسيحية، بل إن المسيحيين كونوا جالية كبيرة في مدينة روما نفسها في وقت مبكر يرجع إلى سنة 64م مما عرضهم لنقمة الإمبراطور **نيرون** و اضطهاده.[1]

أما عن انتشار المسيحية في أركان الإمبراطورية الرومانية فإن معلوماتنا ضئيلة و غير كافية، و إن كان من الثابت أن الفضل الأول يرجع إلى **القديس بولس** (و هو معلم المسيحية الأكبر و كان يهوديا اسمه **عمالائيل** تميز بالحدة و الذكاء و قوة الحيلة و استطاع أن يأخذ مكانا مرموقا بين الحواريين بعد أن قدمه **برنابا الحواري**) في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ووضع قواعد اللاهوت و ما يرتبط من فلسفة المسيحية المتعلقة بالأخلاق و الأخرويات كالموت و البعث و الحساب و الخلود، فضلا عن جهوده في وضع دعائم الكنيسة الكاثوليكية.[2]

و تجدر الإشارة أن المسيحية قد مرت بعدة مراحل أثناء ظهورها و انتشارها حتى عصر الإمبراطور قسطنطين (ت 337م):

1– مرحلة التأسيس : و هي مرحلة الديانة المسيحية المنزلة من عند الله عز وجل و التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه الصلاة و السلام، و التي آمن بها الكثير و لكنه اصطفى منهم 12 حواريا هم مذكورون في إنجيل متى،بالإضافة إلى الرسل الذين يقال بأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة و السلام اختارهم ليعّلموا النصرانية في القرى المجاورة.

2– **المرحلة الثانية:** و يسميها مؤرخو الكنيسة بالعهد الرسولي، و تنقسم هذه المرحلة إلى فترتين، فترة التنصير و بداية الإنحراف (51–55م)، و فترة الاضطهاد الذي طال المسيحيين (64–312م)

3– **المرحلة الثالثة:** مرحلة جمع النصارى على عقيدة واحدة (عصر المجاميع المسكونية أو عصر الخلافات و المناقشات)

[1] – عبد الفتاح عاشور:المرجع السابق،ص30؛ فالح الكيلاني: المرجع السابق،ص:06.

[2] – عبد الفتاح عاشور:المرجع السابق،ص31؛ فالح الكيلاني: المرجع السابق،ص:07؛ أحمد المغوث: المرجع السابق،ص173.

4- **المرحلة الرابعة:** مرحلة الانفصال السياسي و الديني بعد تقسيم الإمبراطورية بعد وفاة قسطنطين بين أبنائه الثلاث.[1]

هذا و قد انتشرت المسيحية في الإمبراطورية الرومانية و كان الغالبية العظمى الذين اعتنقوا المسيحية في أوائل عهدها كانوا من الطبقة العاملة، و أن الطبقات العليا من المجتمع الروماني لم تُقبل على اعتناق المسيحية في أعداد ضخمة إلا عندما تم الصلح بين الكنيسة و الدولة.

2- موقف الإمبراطورية الرومانية من ظهور المسيحية:

من الثابت أن المسيحية لم تكن الديانة الأجنبية الوحيدة التي كان على الحكومة الرومانية أن تحدد موقفا منها، لذلك يبدوا أن الأمر اختلط على الرومان في أول الأمر فظنوا أن المسيحية ما هي إلا فرقة من الديانة **الموسوية(اليهودية)** و هذا لإنفاقهما على رفض فكرة تأليه الإمبراطور و عبادته، و لكن لم يكد ينتهي القرن الأول الميلادي حتى اتضح الأمر و بانت الفوارق بين الديانتين، لأن المسيحيين لم يؤمنوا بأي عقيدة أخرى و أخذوا يجتمعون سرا لممارسة طقوسهم الدينية، كما رفضوا الخدمة في الجيش الروماني، و من هنا أخذت الحكومة الرومانية تغير نظرتها إلى المسيحية على أنها تهديد لأوضاع الإمبراطورية و سلامتها، أي أن الحقد و تشديد الخناق الذي اعتمدته الحكومة الرومانية على المسيحيين كان سببه اجتماعي لا ديني، لأن المسيحية بدت في صورة ثورة اجتماعية تنادي بمبادئ من شأنها تقويض الدعائم التي قام عليها المجتمع الروماني.[2]

هذا و قد كانت الحكومات الرومانية تنظر للجماعات الصغيرة نظرة تختلف عن نظرتها للجماعات الكبيرة، بمعنى أن نظرة الحكومة الرومانية إلى المجتمعات المسيحية في أول الأمر كانت لا تعدو الاستخفاف و التهوين من أمرها بعكس ما أصبح الحال عندما ازدادا انتشار المسيحية و عندئذ تحولت نظرة الحكومة الرومانية إلى نوع من الخوف و الشك و عليه بدأت الحكومة الرومانية تعتبر اعتناق المسيحية جرما في حق الدولة، فمنعت اجتماعات المسيحيين و أخذت تنظم حملات اضطهاد ضدهم، على أن هذا الاضطهاد أتى بنتيجة عكسية حيث زاد عدد المسيحيين.[3]

---

[1] – أحمد المغوث: المرجع السابق،ص– ص:174-178.

[2] – عبد الفتاح عاشور:المرجع السابق،ص: 33، 34؛ فالح الكيلاني: المرجع السابق،ص:09، 10.

[3] – المرجع نفسه ،ص:35.

و قد قام بعض الحكام المتعسفين المعروفين بجبروتهم بحملات اضطهادية ضد المسيحيين نذكر منهم:

– اضطهاد الإمبراطور **نيرون سنة 64م** حيث قدم المسيحيين طعاما للنار العظيمة، و فيه قتل **بطرس و القديس بولس**.

– اضطهاد الإمبراطور **دمتيانوس سنة** 90م للمسيحيين، وفيه كتب يوحنا إنجيله باللغة اليونانية.

–اضطهاد الإمبراطور **تراجان 106م** و فيه أمر بإبادة المسيحيين و حرق كتبهم، فحدثت مذابح مروعة قتل فيها **يعقوب البار** أسقف أورشليم.

– و من أشدها قسوة و أعنفها اضطهاد الإمبراطور **دقلديانوس سنة 284م** و الذي صمم على أن لا يكف عن قتل المسيحيين حتى تصل الدماء إلى ركبة فرسه، و يرجع سبب هذا التطرف في القتل و القمع إلى ازدياد نفوذ المسيحية بين رجال الجيش، و هذا ما هدد بالقضاء على ولاء الجند للإمبراطورية، و هذا ما جعله يقوم بهدم الكنائس و حرق الكتب و أذاق المسيحيين من العذاب صنوفا و ألوانا حتى سمي عصره بعصر الشهداء.

– استمر الاضطهاد في التصاعد إلى أن استسلم الإمبراطور **جالير** لفكرة التسامح مع المسيحيين، لكنه مات بعدها ليعتلي قسطنطين عرش الإمبراطورية.[1]

– إعتراف الإمبراطور **قسطنطين (305–337م)** بالديانة المسيحية، و هناك من يطلق من مؤرخي الكنيسة على هذه الفترة اسم العهد الذهبي للمسيحيين،حيث قام بإصدار **مرسوم ميلان سنة 313م** الذي جعل من المسيحية ديانة مرخصة، كما ساوى بينها و بين غيرها من الديانات الأخرى داخل الإمبراطورية، و تعهد بحماية أرواح و ممتلكات المسيحيين أسوة ببقية الرعايا داخل الإمبراطورية الرومانية، و شيد الكنائس.[2]

و من هذا يبدوا أن سياسة قسطنطين الدينية عبرت عن تطور فكري أكثر منا عن تحول ديني ذلك أن التسامح مع المسيحيين في الوقت الذي لم يضطهد الوثنيين.

[1] – أحمد المغوث: المرجع السابق،ص:176.

[2] – عبد الفتاح عاشور:المرجع السابق ،ص:36؛ فالح الكيلاني: المرجع السابق،ص:07.

و عليه كان مجئ قسطنطين إلى العرش نهاية لأسوأ مراحل التاريخ المسيحي قسوة، الذي ضاع فيها إنجيل عيسى ابن مريم عليه الصلاة و السلام، و قتل الحواريون و الرسل، و بدأ الانحراف و الانسلاخ عن شريعة التوراة، ليبدأ عهد جديد من تأليه المسيح عليه الصلاة و السلام.

الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور دقلديانوس و قسطنطين

رغم الأوضاع المتردية و المعقدة التي أطاحت بالإمبراطورية الرومانية، إلا أنها أفرزت بعض الأباطرة من ذوي الميول الإصلاحية مثل **الإمبراطور أورليان (270–275م)**الذي لقب بمجدد الإمبراطورية، حيث حاول أن يتعامل مع الأوضاع بشكل جديد قوامه الإدراك و الوعي بأهمية الأخطار المحدقة بالإمبراطورية و من هذا المنطلق اتجه نحو تحديد الضرائب و اهتم بالإنتاج الزراعي، كما نظم هجرة العناصر الجرمانية إلى حدودا لدولة. غير أن الإصلاحات التي كانت أشد وقعا و حضوراً، فقد تجلت في الإجراءات التي اتخذها كل من الإمبراطور دقلديانوس (284-305م) و الإمبراطور قسطنطين (306-337م).[1]

1– الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور دقلديانوس (284–305م):

ولد الإمبراطور دقلديانوس في مدينة سالونا في إقليم دالماشيا **سنة 245م**، كان والده عبدان في بيت أنولينوس أحد أعضاء مجلس السناتو، ثم تحصل والده على حريته، و هذا ما جعل دقلديانوس يتحصل على وظيفة كاتب، و بفضل جهوده و نبوغه وصل إلى مرتبة قنصل، ثم تولى وظيفة حرس القصر الإمبراطوري و هي من الوظائف الخطيرة، و تمظهرت كفاءته العسكرية في حرب فارس، و بعد موت الإمبراطور **نومريانوس(283–284م)** اعترف به بأنه أجدر شخص بعرش الإمبراطورية.[2]

[1] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص18؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص17.

[2] – محمود سعيد عمران: **معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**،دار المعرفة الجامعية،مصر،ب.ت،ص:32، 33.

يعتبر العديد من المؤرخين أن دقلديانوس أول الأباطرة الذين عملوا على إنقاذ الإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي، و ذلك من خلال قيامه بإصلاح شامل بعيد الأثر في مختلف مرافق الإمبراطورية. حيث وجه دقلديانوس جهوده نحو ثلاثة أهداف كبرى هي:

- تقوية نفوذ الحاكم.
- إعادة تنظيم الجهاز الحكومي.
- تجديد نظام الجيش.[1]

و عليه يمكن أن نصنف أهم الأعمال التي قام بها الإمبراطور دقلديانوس كما يلي:

1-1- الإصلاحات الإدارية:

- قام بتنظيم الجهاز الإداري بصورة قضت على التفرقة بين الولايات الرومانية.

- اتخذ عاصمة جديدة للإمبراطورية في الشرق و هي مدينة **نيقوميديا** و اتخذ عاصمة أخرى للغرب هي مدينة **ميلان** بدلا من روما.

- ربط دقلديانوس الولايات الرومانية ببعضها البعض من خلال وضع تقسيم إداري جديد يقوم على تحديد السلطات الممنوحة لحكام المقاطعات الأربعة، إذ منح حاكمين لقب **أغسطس** و هو لقب رفيع الشأن و الحاكمين الأخرين منحهم لقب **قيصر**، و قد تم توزيع المسؤوليات على المقاطعات الأربع التالية: **غاليا** و عاصمتها تريف، **ايطاليا** و عاصمتها ميلان، و **إيلليريا** و عاصمتها سرميوم، و **الشرق** عاصمته نيقوميديا، و قسمت إلى 17 وحدة أصغر من المقاطعة.

- جمع دقلديانوس بيده السلطة العليا في الإمبراطورية و الإشراف العام على جميع شؤونها، كما كان القائد الأعلى للجيش[2] أي أراد أن يركز السلطات بيده و جعل منها ملكية استبدادية.

1-2- إصلاحاته العسكرية: حرص دقلديانوس على الإشراف المباشر على شؤون الجيش و إعادة تنظيمه من خلال:

[1] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص19؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص17، 18.

[2] – سعيد عمران : المرجع السابق:ص33؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 20، 21.

– عمد إلى استحداث بعض **الفرق العسكرية الجوالة** غير المرتبطة بإقليم محدد لضمان سرعة مواجهة الأحداث الطارئة التي تواجه الإمبراطورية، و هنا نج دقلديانوس قد اعتمد على الفرق المؤلفة من العناصر الجرمانية و المرتزقة لحماية الإمبراطورية.

– نشط روح الجندية و بث الفاعلية فيها من خلال طرحه إمكانية ترقية الجندي إلى أرفع المناصب في السلك العسكري.

– جعل مراكز إقامة الفرق العسكرية بالقرب من عواصم كبار الحكام الأربعة حتى يكونوا على أهبة الاستعداد للسير إلى الحدود في أي وقت يطلب منهم.

– قام بزيادة عدد أفراد الجيش الروماني في عهده حتى و إن كانت من غير العنصر الروماني.[1]

1–3–الإصلاحات الاقتصادية:

– اتجه الإمبراطور نحو إصلاح شؤون العملة الرومانية التي عانت من الانهيار و ضعف القيمة، حيث قام بصك عملة صحيحة و سليمة حازت على ثقة التجار و المتعاملين من جهة أخرى.

– قام بحماية الفقراء من جشع التجار و المستغلين لأقوات الأهالي من خلال حرصه على متابعة الأسواق و عمله على تحديد أسعار البضائع الرئيسية.

– قام بحصر الأراضي الزراعية في الإمبراطورية و حددها من أجل تقرير الضرائب بصورة عادلة.[2]

و على أي حال فإن تجربة دقلديانوس لم تلق النجاح المرجو رغم الفكرة الرائعة و توجهات الإمبراطور نحو نية الإصلاح، إذ برز العديد من القضايا العالقة التي لم تعالج أو أغفلت عمدا نظرا لعدم وجود الإمكانات منها:

– تنامي نفوذ بعض الفئات الإدارية التي توارثت مناصبها و حشدت جميع الخبرات و الأعمال في دائرتها الضيقة ، حتى أصبح من الصعب أن يتم استبدالها بموظفين جدد.

– هجمات البرابرة المتكررة على الحدود و قيام **حرب أهلية** دامت 17 سنة بعد اعتزال دقلديانوس، و هذا أدى بدوره إلى تفشي الطاعون و نقص عدد السكان داخل الإمبراطورية.

---

[1] – سعيد عمران : المرجع السابق:ص34؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 22.

[2] – نوري الربيعي: المرجع السابق،ص18.

– كثرة الضرائب التي وقع الجزء الأكبر من عبئها على الطبقات الدنيا، في حين تمتعت الطبقات العليا بكثير من الإعفاءات الضريبية و المالية و منه لم يستطع دقلديانوس إعادة الأوضاع المالية في الدولة لحالتها الطبيعية.

– إصلاحات دقلديانوس و ما تطلبته من نفقات مالية طائلة ألقت حملا ثقيلا على الأهالي في وقت كانت مالية الإمبراطورية تعاني إجهاد شديد منذ أوائل القرن الثالث الميلادي، مما زاد الحال سوءا، و هذا ما دفع دقلديانوس سنة 305م إلى اعتزال الحكم و عمره 59 سنة، بعد أن أصيب بعلة الشيخوخة المبكرة، و قضى دقلديانوس أعوامه 09 المتبقية معتكفا عن الحياة العامة.[1]

2– الإمبراطورية في عهد الإمبراطور قسطنطين (306– 337م):

كان أول ظهور لقسطنطين على مسرح الأحداث عندما توفي والده في مدينة **يورك** الحامية الرومانية فنادى سكانها بقسطنطين أوغسطسا، و هنا بدأ يقوم بعدة أعمال عسكرية منها زحفه بجيشه على غالة و توليه إدراتها، كما غزا ايطاليا فأعلن إمبراطورا على الإمبراطورية الرومانية بعد اعتزال دقلديانوس الحكم.[2]

و بتولي قسطنطين الحكم تكون الإمبراطورية قد دخلت في عهد الإصلاحات الثانية و التي تتمثل في قيامه بخطوتين:الإعتراف بالديانة المسيحية و نقله لعاصمة الإمبراطورية.

و مهما يكن من أمر فإن هذه الإصلاحات تبلورت في عدة ميادين منها:

2–1– الإصلاحات الإدراية:

– قام بالاعتراف بالديانة المسيحية عندما أصدر مرسوم **ميلان 313م** الذي يرخص للمسيحيين بممارسة طقوسهم الدينية بكل حرية، بل تعدى الأمر إلى الإقرار بالاعتراف بالمسيحية كديانة رسمية للدولة، و الواقع أن الإمبراطور لم يعتنق المسيحية إلا في الفترة الأخيرة من حياته.[3]

– قام بنقل عاصمة الإمبراطورية من مدينة روما القديمة في الغرب إلى مدينة **القسطنطينية** الجديدة في الشرق، التي بدأت عمليات الإنشاء فيها سنة 324م ليتم افتتاحها بشكل رسمي في **11 ماي 330م**، و قد تميزت هذه المدينة بالموقع الإستراتيجي بين الشرق و الغرب، و المسيطر على مداخل

[1]– سعيد عمران : المرجع السابق:ص35؛نوري الربيعي: المرجع السابق،ص19.

[2] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 35.

[3] – سعيد عمران: المرجع السابق،ص:37.

العديد من البحار، و لم تتوقف أهمية هذه المدينة الجديدة في كونها عاصمة سياسية جديدة بقدر ما كان التطلع إلى إنشاء مركز ثقافي له حضوره المؤثر في الثقافات الخاضعة للحضارة الرومانية، بالإضافة إلى التحكم المباشر بطرق التجارة العالمية.[1]

– أدخل مبدأ الحكم الوراثي في المنصب الإمبراطوري وراثيا في أسرته التي اعتمدت على تأييد الجيش من جهة و على الدعامة الدينية من جهة أخرى مستندا في ذلك أيضا على العناصر الجرمانية، بمعنى أنه حول نظام الحكم الإمبراطوري من الانتخاب و الاختيار إلى الوراثة.[2]

2–2– الإصلاحات العسكرية:

– قام بإنقاص عدد أفراد الفرق العسكرية الجوالة.

– استمر في فتح الباب أمام العناصر الجرمانية للانخراط في سلك الجيش الروماني كجنود نظاميين.

2–3– الإصلاحات الاقتصادية:

– ضاعف من الضرائب التي كانت مفروضة على الشعب و ذلك من خلال تركيز جهوده على تثبيت نظام **القنانة**، و ذلك من أجل السيطرة عليها جيدا.

– وضع طبقة الصناع في مرتبة العبودية عندما جعل الحرف و الأعمال وراثية حتى لا يفر أصحابها من قسوة الضرائب.

– شدد على فرض العقوبات على فارضي الضرائب في المدن إذا عجزوا عن استيفاء الضرائب التي قررتها الحكومة.

– أما في المجال الزراعي فقد وضع تشريعات مشددة تمنع أولئك الذين يغرقون في الديون نتيجة لكثرة الضرائب و ارتفاع الأسعار من ترك أراضيهم و الانتقال إلى ولايات أخرى عسى أن تكون الأحوال الاقتصادية فيها أقل قسوة، الأمر الذي عجل بالقضاء على طبقة المزارعين و تحويل هذه الطبقة إلى عبيد مربوطين بالأرض.[3]

---

[1] – السيد الباز العريني: **الدولة البيزنطية 323–1081م**، دار النهضة العربية، بيروت،1982،ص30

[2] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص24.

[3] – نوري الربيعي: المرجع السابق،ص20.

توفي الإمبراطور قسطنطين سنة **337م** بعد أن أمضى سنواته الأخيرة في سلام نسبي هيأ له الفرصة لمواصلة إعادة التنظيم الإداري و المدني و العسكري للإمبراطورية و خلفه على العرش أبناؤه الثلاث : **قسطنطين و قسطنطيوس و قنسطانس**.[1]

غزوات الجرمان و سقوط الجناح الغربي من الإمبراطورية الرومانية.

سبق للإمبراطورية الرومانية أن تعرضت لغزوات شرسة من طرف البرابرة و من بينهم الكلت الذين هم أحد عناصر الجنس الهندو–أوربي الذين نفذوا إلى أوربا في هجرتهم نحو الغرب منذ أزمنة سحيقة. و كانوا قد نزلوا في الغابات الواقعة شمال أوربا و الجهات المعروفة الآن بجنوب ألمانيا ووديان أعالي الدانواب و أواسط الراين حتى نهر الألب شرقا، غير أنهم اضطروا تحت ضغط القبائل الجرمانية من الشمال إلى ترك مواقعهم في هذه المناطق و الانتشار في جهة الجنوب الغربي منذ أوائل القرن الرابع الميلادي فنزلوا في غالة. غير أن أشد الغزوات وقعا على الإمبراطورية الرومانية كان على يد القبائل الجرمانية.[2]

1– الغزوات الجرمانية للإمبراطورية الرومانية:

موطن الجرمان: يقدم العديد من المؤرخين مجموعة من النظريات حول الموطن الأصلي للجرمان و يركزون على أنهم نزحوا من سواحل بحر البلطيق نحو المنطقة المحصورة بين نهري الألب و الراين جنوبا، فيما اتجه فريقا منهم إلى اسكندنافيا و الدانمارك حاليا، و يؤكد مؤرخون آخرون على أنهم من الأصول الآرية القاطنين في القارة الأسيوية، و في احتمال أخر أنهم من سكان سواحل بحر قزوين و قد نزحوا نحو حوضي نهر الأودر و الألب.[3]

[1] – سعيد عمران : المرجع السابق:ص44؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 27.

[2] – فالح الكيلاني: المرجع السابق،ص148.

[3] – نور الدين حاطوم: **تاريخ العصر الوسيط في أوروبة**،دار الفكر،ب.م،1967،ص16.

هذا و قد كان الجرمان أقرب عناصر البرابرة إلى حدود الإمبراطورية الرومانية، إذ انتشروا خلال القرنين الأول و الثاني في أواسط أوربا و شرقها عبر نهري الراين و الدانوب و التي أصبحت تلبي رغباتهم خصوصا أن البرد و الصقيع جعلا حياتهم عسيرة، فيما مثلت الرغبة بعبور النهر إلى الدولة الرومانية هاجسا لا يمكن إلغاؤه أو التغاضي عنه،حيث فرص العمل و الأموال و الحياة المغرية، إلا أن قوات الحدود الرومانية جعلت من مهمة العبور صعبة المنال. فاستقرت عند نهر الراين الذي يحد الإمبراطورية من الشرق، و خلال هذه الفترة قامت بالحفاظ على جنسها و لم تتصاهر مع القبائل الأخرى، و هو الأمر الذي ميز رجالها بصفات معينة، كالعيون الزرقاء الحادة و الشعر الأشقر والجسم الرياضي الذي يساعدهم على أداء الأعمال الشاقة و العسكرية.[1]

و يعد كتاب المؤرخ الروماني **تاكيتوس** المسمى **جرمانيا** أهم المصادر التاريخية التي تتحدث عن الجرمان و حياتهم الاجتماعية و السياسية و الدينية.

ينقسم الجرمان إلى قسمين:

- **الجرمان الشرقيون**:و هم القوط الغربيين و القوط الشرقيين و الوندال و اللمبارد.
- **الجرمان الغربيون**: الفرنجة و الإنجليز و السكسون.

و قد بدأ نفوذ الجرمان في القرن الرابع الميلادي لأن روما سمحت لهم بالإقامة في إقليم البلقان و إقليم داشيا سنة 370م لمحاربة خطر الهون – جعلت من القبائل الجرمانية درعا بشريا يحمي الإمبراطورية من الهجمات الهونية– و من هؤلاء الجرمان القوط– من أكبر القبائل الجرمانية و أكثرهم قوة– و أصلهم من المنطقة الواقعة على ضفاف بحر البلطيق و نزحوا من موطنهم إلى الشواطئ الشمالية الغربية من البحر الأسود خلال القرن الثاني الميلادي، لكنهم توزعوا إلى جهتين، حيث توجه القوط الشرقيون إلى السهول الجنوبية من روسيا حاليا، فيما توجه القوط الغربيون إلى منطقة ترانسلفانيا و البلقان على ضفاف نهر الدانوب.[2]

1–1– القوط الغربيون (415– 711م): بعد استقرارهم في منطقة البلقان على ضفاف نهر الدانوب، و نتيجة لضغط قبائل الهون أثناء توجههم غربا سمح لهم الإمبراطور فالنز(364–377م)

[1] – نوري الربيعي: المرجع السابق،ص24.

[2] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص 75؛ صلاح الأمين عبد الله محمد: **البرابرة الجرمان و دورهم في سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب عام 476م**، مجلة العلوم و الدراسات الإنسانية– المرج، جامعة بنغازي، العدد01،المجلد الثاني،ليبيا،2014،ص151.

يعبور نهر الدانوب سنة 376م و دخلوا إلى روما و أدركوا ضعف الإمبراطورية من الناحية العسكرية، وهنا نلاحظ أن تنازل الإمبراطور فالنز عن إقليم من أقاليم الإمبراطورية سيكون بداية لتطلع القبائل الجرمانية للاستقرار و طلب أقاليم أخرى منها إقليم تراقيا.

و مما تجدر الإشارة إليه أن القوط حين توغلوا داخل الإمبراطورية بقوا محافظين على زعيم قبيلتهم و على عاداتهم و تقاليدهم و أسلحتهم، بل يخضعون لنظامهم القبلي الذي جاؤوا به، و هذا يشكل خطرا على الإمبراطورية الرومانية من الناحية السياسية و الإدارية.

رفض الإمبراطور فالنز تحقيق مطلبهم القائم بالتنازل عن إقليم تراقيا فثاروا عليه ووقعت معركة أدرنة 09 أوت 378م و هي حدث هام تحالف فيه القوط الغربيون و القوط الشرقيون و أستطاعوا هزيمة فالنز و قتلوه (مات فالنز بالنار و هو الذي كان يقول أنا ابن الله – تعالى الله أن يكون له ولد–)، و هذه المعركة تعتبر أول تفوق عسكري كبير للجرمان على الإمبراطورية الرومانية، و بعد ذلك تأثر القوط بالرومان و اعتنقوا المسيحية على المذهب الأورثودكسي، حيث تمكن أولفيلاس منأن يترجم الإنجيل إلى اللغة القوطية.

و بمجيء الإمبراطور ثيودوسيوس سنة 378م دخل في مفاوضات مع القوط دامت ما بين 8 إلى 10 سنواتل أن القوط تمكنوا من التغلغل داخل الإمبراطورية الرومانية و أصبحوا يتقلدون مناصب القادة في الجيش الروماني، و هذا ما جعل الإمبراطور ثيودوسيوس يصدر عدة قرارات وفق معاهدة سنة 382م منها:

- الاعتراف بالديانة المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية على المذهب الكاثوليكي.
- التنازل عن إقليم تراقيا للقوط الغربيين و عن إقليم داشيا للقوط الشرقيين .
- قسم الإمبراطورية بين ولديه أوركاديوس الذي أخذ القسم الشرقي بعاصمته القسطنطينية، بينما أخذ هونوريوس القسم الغربي الذي عاصمته مدينة رافنا.[1]

بعد وفاة الإمبراطور بدأت الأمور تتطور حيث أدرك القوط قوتهم كما أدركوا أن الإمبراطورية بحاجة لهم، و لولا ذلك لما تمكنوا من فرض هذه القرارات، و من هنا يعتبر العديد من المؤرخين أن سنة 378م تعتبر بداية لسياسة الجرمنة للقسم الغربي الذي كان ضعيفا – عرف القسم الغربي

[1] – سعيد عمران : المرجع السابق:ص67–70؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 66–71؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص27، 28.

للإمبراطورية الرومانية من القرن 2م و حتى القرن 5م صراعات كبيرة أنهكته– استغل القوط ضعف الإمبراطور الغربي و بدأوا يطلبون أراضي جديدة للإقامة فيها خارج تراقيا و داشيا، و هنا نجدهم بدأوا يتطلعون للسيطرة على ايطاليا و ذلك من أجل الوصول إلى مدينة روما، فثاروا على الإمبراطور في القرن 4م، فخرج الجيش الروماني بقيادة ستيلكون – جرماني الأصل– لمحاربة القوط الذين توسعوا خراج المناطق المعطاة لهم، فعبروا نهر الدانوب و تكونت مملكة القوط الغربيين و دخلت في صراعات عسكرية مع الإمبراطورية منها معارك: 402م / 406م / 408م، كما عين على رأس قبيلة القوط الغربيين ملكا يدعى ألاريك الذي استطاع دخول مدينة روما، و رفض الخروج منها حتى قدمت له الأموال، و في نفس الفترة الزمنية كانت الإمبراطورية تعاني من تهديد قبائل السكسون من الغرب و الفرس من الشرق، و هذا ما أدى إلى سحب ستيلكون من روما و اتجه للشرق للدفاع عن أراضي الإمبراطورية فأحيكت مؤامرة ضده فأعدم.

كما عاد ألاريك سنة 410م إلى مدينة روما و عاث فيها فسادا ثلاث أيام لكن لم يحطموا الكنائس ، و هنا تدخل البابا فتفاوض مع القوط، و أقر الإمبراطور باستعداده للتنازل عن إقليم أكيتانيا(جنوب غالة) للقوط الغربيين و كان الهدف هو إبعادهم عن روما نهائيا و صرف نظرهم عنها، و في نفس الوقت كان هناك في هذه المنطقة القوط الشرقيون فبدأ الصراع بينهما، غير أن القوط الغربيون تمكنوا بعد عدة سنوات من الإستقرار في المنطقة بعد صراع مرير مع قبائل الوندال و السيوفي و الآلآن.

كان لوفاة ألاريك تأثير مباشر على مشروع السيطرة على شمال افريقية ، ثم خلفه أتولف و من بعده جاء أريك، و هنا انتقلت عاصمة القوط الغربيين إلى مدينة توليدو (اسبانيا)، قام خلالها القوط الغربيون بالإبقاء على حضارة الإمبراطورية الرومانية و حافظوا على التنظيم المالي و الإداري لمملكتهم المستقلة مع وجود الارتباط الاسمي للإمبراطورية الرومانية، و دامت هذه المملكة إلى غاية سنة 711م حتى الفتح الإسلامي للأندلس.[1]

[1] – سعيد عمران : المرجع السابق،ص:71–75؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 70، 71؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص:30،29.

1–2– الوندال (429–534م):

شهد القرن الخامس الميلادي توزيعا جديدا لتمركز القبائل الجرمانية في غرب أوربا حيث استقر عنصر السويفي في شمالي غربي اسبانيا، و اتجهت عناصر الآلآن للإستقرار في البرتغال، فيما تمركز الوندال – هم من الجرمان الشرقيين – في مقاطعة باتيكا جنوب اسبانيا بعدما عقدوا اتفاقا مع الإمبراطورية الرومانية ينص على التحالف و المشاركة في الحملات العسكرية الرومانية، و نتيجة حدوث زحف القوط الغربيين على مناطق الوندال فتعرضوا لضغط شديد مما حدا بهم إلى الهجرة جنوبا نحو الشمال الإفريقي بقيادة زعيمهم جنزريك سنة 429م. و هنا نتيجة الظروف للظروف السيئة و العسيرة التي تعرض لها الوندال جعلتهم يتطلعون إلى فرض سيطرتهم على المناطق التي وصلوا إليها بعد أن تركوا الأراضي الأوروبية. فأستغلوا حالة الضعف و الفراغ السياسي ليتوسعوا على حساب أقاليم الإمبراطورية في شمال افريقيا فسيطروا على المغرب الأقصى ثم المغرب الأوسط، بل أنهم حاولوا الدخول إلى أراضي المغرب الأدنى ذا الأهمية البالغة في توفير مخزون الغذاء، و بالفعل تمكن الوندال من السيطرة على مدينة قرطاجة سنة 439م و أمام هذه القوة و التفوق العسكري الوندالي لم يجد الرومان إلا الإعتراف بالسيادة الوندالية على الجهة الغربية من الشمال الافريقي من خلال معاهدة 442م (حتى بلغت العلاقة حد الندية إذ اعتبر زعيم الوندال نفسه بمثابة ملك مستقل).

أما الجانب الآخر من النشاط الوندالي فيتمثل في النشاط البحري الذي لم ينقطع و الذي شكل تهديدا مباشرا للعاصمة روما، حيث تمكنوا من دخولها سنة 455مبدعوى تلبية نداء أرملة الإمبراطور فالنيتينيان الثالث(425–455م) و لولا تدخل البابا ليو الأول أمام القائد جنزريك لتم تدمير روما بالكامل، و هنا نلاحظ تكرر أمر هزيمة ثانية بحرية على يد الوندال بعد هزيمة برية على يد القوط.

و بوفاة الملك جنزريك سنة 477م دخل الوندال في حالة من الفوضى و الضعف انتهت بسقوط دولتهم على يد القائد الروماني بلزاريوس سنة 534م، و به عادت شمال افريقيا للسيادة الرومانية على عهد الإمبراطور جستنيان.[1]

[1] – سعيد عمران : المرجع السابق،ص:76–79؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 72، 73؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص31–33.

1–3– البورجنديون (451–507م):

تعود أصول البورغنديون إلى شبه الجزيرة الاسكندنافية، و يرجع أول ظهور لهم إلى القرن الثالث الميلادي، حيث بدأت علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية و كان موطنهم الأصلي في واد الماين في الجزء الأوسط من حوض نهر الراين(ألمانيا) لكن حركة قبائل القوط الغربيين و الوندال إلى الجهات الغربية بحكم إكتساح قبائل الهون جعل من البورغنديون يطلبون الإذن من الإمبراطور هونوريوس لدخول حدود الإمبراطورية، حيث استقر بهم الحال في جنوب غاليا. بالمقابل قدم البورغنديون مساعدات عسكرية للجيش الروماني في صد هجمات الهون، مثل ما حدث في معركة شالون في منطقة السهول الكتالونية سنة 451م، و كانت المكافأة أن منحت لهم حق الإقامة في الجهة الجنوبية الشرقية من غاليا، و قد تمكنوا من التوسع لتشمل مملكتهم شمال اسبانيا، غير أن مملكتهم لم تدم طويلا حيث اصطدموا بأطماع مملكة الفرنجة، حيث تمكن الملك كلوفيس من ضمها إلى حكمه سنة 507م.[1]

1–4– قبائل الهــون:

يكاد يجمع علماء الأجناس على أن قبائل الهون من العناصر الأسيوية– التركية– المغولية– نفذوا إلى جنوب شرق أوربا قادمين من أواسط أسيا عبر البراري و السهوب في أواخر القرن الرابع الميلادي، و كانوا يتميزون بوحشية كبيرة و تحرك سريع، ظلوا على شواطئ البحر الأسود– في منطقة بلغاريا و المجر– منذ أواخر القرن الرابع الميلادي و حتى سنة 425م ثم أخذوا يزحفون نحو منطقة البلقان ليتمكنوا من فرض سيطرتهم على مناطق واسعة من شرق أوربا – رومانيا و هنكاريا و بولونيا و شمال ألمانيا حاليا– و حيت تولى أتيلا حكم الهون سنة 433مبدأت مرحلة جديدة في تاريخهم، حيث سيطروا على معظم القبائل الجرمانية (البلغار و الآفار و الآلآن و السلاف) المقيمة في حوض نهر الدانوب، و هددوا القسطنطينية مما اضطر الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني(408–450م) إلى دفع جزية سنوية مقابل عدم اعتدائهم على أراضيه، و في سنة 444م شهد غرب أوربا حالة خراب و خوف شديدين نتيجة توجه نشاط الهون نحو الغرب فخربوا مواشيا و تراقيا و إيلليريا و بانوتيا هذه المواقع ساعدت أتيلا في تحقيق تطلعاته الحربية، حيث بدأ يستقر

[1] – سعيد عمران : المرجع السابق:ص 75، 76؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 66–71؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص34، 35.

بقواته عند نهر الدانوب، و لم يجد صعوبة بالإمساك بالحجة التي بواسطتها يبدأ عدوانه على مناطق الجوار، خصوصا و أن شقيقة الإمبراطور فالنتينيان الثالث أرسلت مستغيثة بهذا القائد بعد أن تعرضت للإضطهاد من طرف أخيها الإمبراطور، فما كان منه إلا التوجه بجيش قوامه 1.5 مليون مقاتل لغزو غاليا بعد عبروه لنهر الراين في حركة سريعة التي نتج عنها دمار و حريق لكل المدن التي سار بها جيش أتيلا، غير أن الخراب كان حافزا لحشد القبائل الجرمانية حيث تمكن القائد الروماني إيتيوس من اقناع القوط الغربيين بالتحالف مع الجيش الروماني لدفع خطر الهون المشترك، و بالفعل دارت معركة شالون 451م عند منطقة السهول الكتالونية و التي انهزم فيها الهون هزيمة كبيرة، و الواقع أن هذه المعركة لا تقل في الأهمية التاريخية عن معركة أدرنة سنة 378م، لأن هذه الموقعة أنقذت غرب أوروبا من خطر الهون، و بعدها ارتد أتيلا نحو منطقة الراين و قام بتنظيم غزو لإيطاليا سنة 425م لحفظ ماء الوجه، فخرج أسقفها البابا ليون الكبير و تفاوض مع أتيلا فجلت القوات الهونية عن المدينة، بعد أن أخذوا وعدا بالحصول على جزية سنوية.

بعد هذه الأحداث الجسام لم تطل الحياة بأتيلا الذي توفي سنة 453م، لتظهر في أعقابه مشاكل و صعوبات جمة واجهت قبائل الهون، كان الأبرز منها مسألة ولاية العهد، فاقتسم أبناؤه الإمبراطورية و دب الضعف و الانقسام بينهم، فانتهزت الشعوب الجرمانية الفرصة و أعلنت الحرب على الهون في معركة نيداو سنة 454م ليتقهقر الهون إلى الحوض الأسفل من مهر الدانوب و غرب البحر الأسود، و بذلك إنهارت إمبراطورية الهون.[1]

1–5– القوط الشرقيين (493–553م):

ابتداء من القرن الرابع الميلادي استقر القوط الشرقيون في المنطقة الشمالية من البحر الأسود قريبا من نهر الرون، لكن غزوات قبائل الهون المدمرة سنة 375م كانت سببا في فرارهم نحو الجهة الغربية، فاستقر بهم الحال في منطقة هنكاريا حاليا بالقرب من نهر الدانوب بعد أخذهم إذنا من الإمبراطورية للاقامة في هذه المنطقة، إلا أن الزحف الهوني طالهم من جديد ليصبحوا تحت رحمتهم، و بعد وفاة القائد أتيلا سنة 453م و ما نتج عنه من تفكك داخل الحكم الهوني حاول القوط الشرقيون التوجه نحو القسطنطينية إلا أنهم تعرضوا لهزيمة ساحقة على يد الجيش البيزنطي سنة

[1] – سعيد عمران : المرجع السابق:ص80، 81؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 73، 74؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص35–38.

461م، و تعرض قائدهم ثيودوريك إلى الأسر (كان لهذا الأسر الأثر البالغ في تكوين شخصيته الثقافية و السياسية و العسكرية لاسيما و انه اطلع على النظم الحضارية التي تزهى بها عاصمة الحكم البيزنطي) و مع النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي نـما النفوذ الجرماني حتى بلغوا أرفع المناصب العسكرية و القيادية، و لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن التدخل الجرماني صار يقترب من أهم مؤسسة داخل الإمبراطورية الرومانية، ممثل في منصب الإمبراطور نفسه، و لعل العمل الذي قام به القائد أدواكر– زعيم قبيلة الهرول– سنة 476م عندما عمد إلى خلع الإمبراطور الطفل روميلوس أغسطلوس – ليجعل نفسه بديلا عن الإمبراطور،و هنا نلاحظ انسلاخ الجزء الإيطالي من يد الرومان ووقوع في يد الجرمان– و نفاه خراج ايطاليا ، و بعزل إمبراطور الغرب أصبح إمبراطور الشرق الإمبراطور البيزنطي زينون (474–491م) الإمبراطور الأوحد الممثل للسلطة الرومانية التقليدية، و مما تجدر الإشارة إليه أن الغرب الأوروبي ظل منذ سنة 476م و الكرسي الإمبراطوري شاغرا حتى سنة 800م عندما نصب شارلمان نفسه إمبراطورا على الغرب الأوربي.

أما عن نهاية القوط الشرقيين فكانت على يد القائد نارسيس سنة 553م حيث تمكن من احتلال العاصمة رافنا لتعود ايطاليا إلى حظيرة الإمبراطورية خلال عهد الإمبراطور جستنيان (527–565م).[1]

– غير أنه يجب أن نشير هنا أن هذه الغزوات تمثل مرحلة الأولى من غزوات البرابرة، لتليها غزوات أخرى بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب في مرحلة ثانية بقيادة الفرنجة و السكسون و الإنجليز.

2– عوامل سقوط الجناح الغربي من الإمبراطورية الرومانية:

عندما نتحدث عن سقوط الدولة الرومانية، نقصد بطبيعة الحال غزوات الجرمان البرابرة لأنها كانت السبب المباشر لهذا السقوط، و لا خلاف أنه كانت توجد أسباب أخرى عديدة و متشابكة ساعدت في انهيار هذه الإمبراطورية منها:

[1] – نوري الربيعي: المرجع السابق،ص 40–43.

– التفكك الإدراي نتيجة اتساع المساحة الجغرافية للإمبراطورية الرومانية و هذا ما أدى إلى تعدد المقاطعات مما نتج عنه اختلاف في الإدارة و النظم.

– الفوضى المالية و يمثلها الضريبة الغير منتظمة و التوزيع الغير العادل للثروة، لتكمله ضعف قيمة العملة الرومانية.

– تمركز القوة الحقيقية للإمبراطورية في أيدي العناصر الجرمانية بفعل الإرتقاء في المناصب العسكرية و المدنية.

– تعدد الأخطار التي هددت الإمبراطورية الرومانية (الفرس، الجرمان.....)

– انحطاط الزراعة و الصناعة و التجارة نتيجة (ترك الأرض للرقيق– ازدياد الضرائب– إهمال الطرق)

– انغماس الرومان في حياة الترف و الملذات كاللهو و البحث عن مظاهر الأبهة.

– الاختلافات الحضارية و اللغوية و المذهبية بين شرق و غرب الإمبراطورية (حضارة لاتينية ≠ حضارة هيلينية، اللغة اللاتينية≠ اليونانية، المذهب الكاثوليكي ≠ الأورثودكسي)

– إهمال مدينة روما في الفترة الأخيرة من حكم الرومان، حيث فقدت أهميتها بإهمال الأبارطة لها منهم الإمبراطور مكسيميانوس نقل العاصمة لمنطقة الراين و الدانوب، الإمبراطور دقلديانوس نقلها إلى مدينة نيقوميديا، الإمبراطور قسطنطين نقلها إلى مدينة القسطنطينية.)

– ظهور الديانة المسيحية و اعتناق الرومان لها،بحيث كانت أخطر منافس للديانات القديمة من جهة و من جهة ثانية لما تحمله من مبادئ الحرية و المساواة للعبيد، فضلا عن تطور مؤسسات هذه الديانة منها الكنيسة التي أصبحت تمثل دولة داخل دولة من خلال الدعوة لعبادة الله لا عبادة الإمبراطور.[1]

1 – سعيد عمران : المرجع السابق،ص 83، 84 ؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 75 و ما بعدها.؛ صلاح الأمين: المرجع السابق،ص165-167.

نشأة البابوية و تطورها.

1– نشأة البابوية:

منذ ظهور المسيحية و بدء انتشارها انتظم المسيحيون في أماكن عرفت باسم الكنائس يقوم بأعمالها أسقف ينتخب من قبل جماعة من المؤمنين و يساعده في أداء مهامه بعض القساوسة و الشمامسة، و كانت كل جماعة مسيحية تعتبر الأسقف خليفة للمبشر الأول الذي بشر بالمسيحية في أرضها، و امتاز التنظيم الكنسي في العصر المسيحي الأول بالبساطة المطلقة، إذ لم تقم حدود فاصلة بين رجال الدين وسائر الجماعات المسيحية ،و تدريجيا بدأ يتشكل نظام تسلسلي في السلطات الكنسية حسب التقسيمات الإدارية في الإمبراطورية الرومانية، فنجد الأسقف في المدينة، و رئيس الأساقفة(مطران) في كل عاصمة من كل أبروشية، بينما نجد لقب بطريرك في أمهات المدن المسيحية و هي: القدس، الإسكندرية، قرطاجة، روما، و فيما بعد مدينة القسطنطينية.

كان هؤلاء البطاركة الستة يشكلون أعلى سلطة كنسية، و يتبع كل واحد منهم رؤساء الأساقفة الذين يشمل نفوذ الواحد منهم عدة أسقفيات، بينما يأتي في أدنى السلم الكهنوتي قسيس الذي يكون في القرية، و هكذا نلاحظ ظهور سلم كهنوتي متدرج في المناصب يشبه إلى حد كبير سلم الوظائف الإدارية في الإمبراطورية الرومانية.[1]

و بعد الاعتراف بالديانة المسيحية في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول تحولت الكنيسة من منظمة بسيطة ديمقراطية إلى هيئة ذات إدارة بيروقراطية مركزية،كذلك أدت الثروات الكبيرة و الهبات التي أغدقت على الكنيسة إلى اختفاء روح البساطة و الأخوة و المساواة، إذ حلت مكانها مسحة من الأبهة و التعالي و التباعد عن جمهور المؤمنين.كما تشبه الأساقفة بالأمراء و أحاطوا أنفسهم بالحشم و الخدم و الموظفين، كما أقاموا في قصور تفوق قصور الحكام في مظاهر الرفاه و العظمة.

لقد قامت الكنيسة بمحاكاة نظام الحكومة الإمبراطورية تفي تنظيمها و استعانت في ذلك في إنشاء شخصية عظيمة على رأسها يماثل الإمبراطور على رأس الإمبراطورية.[2]

---

[1] – نعيم فرح: المرجع السابق، ص181.

[2] – نوري الربيعي: المرجع السابق،ص111، نعيم فرح:ص182.

إن اختلاف الظروف و الأحداث و تطورها في قسمي الإمبراطورية الرومانية الشرقي و الغربي أدى إلى فروق بين الكنيسة الشرقية و الغربية، ففي الشرق خضعت الكنيسة للأباطرة البيزنطيين الذين تدخلوا في شؤونها حتى أصبح الإمبراطور يمثل نوعا من القيصرية البابوية، حيث جمع بين السلطتين السياسية و الدينية، و من هنا أصبحت الكنيسة تعتمد اعتمادا كبيرا على الدولة لتثبيت دعائمها و ترسيخ سلطانها و نشر عقيدتها. أما في القسم الغربي فقد تطورت الأمور بشكل مغاير عما في الشرق البيزنطي، فقد برزت كنيسة روما منذ القرن الثاني الميلادي كقوة روحية و سياسية، و تحققت لها السيادة الفعلية على جميع كنائس أوروبا الغربية، و تحصلت على مكانة الزعامة باعتبار أن منصب رئيس أساقفة روما إنما هو وراثة لمكانة القديس بطرس الرسول–و هو من حواري السيد المسيح عيسى عليه الصلاة و السلام– و كذلك لم يخضع رئيس أساقفة روما ليون الأول الذي أصدر مرسوما بتعيينه بابا سنة 445م لسلطة إمبراطور القسطنطينية، و ادعى بابا روما الزعامة الدينية على جميع الكنائس المسيحية، لكن هذا الإدعاء لم توافق عليه الكنائس الشرقية (القدس، أنطاكية، الإسكندرية، القسطنطينية) في حين وافقت عليه جميع كنائس أوروبا الغربية.[1]

هذا و لقد ساعدت مجموعة من العوامل لبروز نظام البابوية، حيث نجدها هيأت لبابا روما دون غيره السلطة العليا على جميع أساقفة الغرب الأوروبي من بينها:

– الأهمية السياسية و الاقتصادية و التاريخية لمدينة روما التي يقوم فيها الكرسي الأسقفي و لا توجد مدينة تضاهي مدينة روما ذات الماضي العريق و الشهرة و السبق الأول في تاريخ المسيحية، فليس من الغريب أن يتمتع أسقف روما بمكانة مستمدة من أهمية هذه المدينة، حيث نجد أن مدينة روما ارتبطت ارتباطا أبديا بذكرى رسول المسيح عليه الصلاة و السلام بطرس الذي أسس أول الكنائس في أوروبا الغربية، بمعنى أن أسقف روما هو خليفة القديس بطرس، و بما أن القديس بطرس كان نائبا للمسيح في الأرض، فإن خليفته أسقف روما يعد نائبا للمسيح في الأرض و معصوما من الخطأ، إضافة إلى ذلك أن مدينة روما شهدت مع مطلع القرن الرابع الميلادي انجاز

[1] – نعيم فرح: المرجع السابق،ص182.

أول ترجمة كاملة للإنجيل على يد الأسقف جيروم ليكون من الوسائل المهمة في التعريف بالديانة المسيحية على نطاق واسع.[1]

– النشاطات التي بذلها مجموعة من رجال الدين البارزين من أمثال: القديس أمبروز (340–398م) الذي حظي بمنصب رئيس أساقفة ميلان عام 374م و تمكن من الدفاع عن مكانة الكنيسة و أهمية دورها الفعال و الأكيد، معتبرا أن سلطة الكنيسة فوق سلطة الإمبراطور، أما القديس أوغسطين (354–430) فلا يقل أهمية عن أستاذه أمبروز حيث كان له العديد من المواقف البارزة إزاء أصحاب العقائد المختلفة، حيث كان لسقوط روما سنة 410م بيد القوط الغربيين أثره الواضح على أوغسطين ليضع كتابه "مدينة الله" حيث دافع فيه عن الديانة المسيحية إزاء اتهامات الوثنيين لها باعتبارها المسؤولة عن سقوط روما،كما لعب البابا ليو الأول(440–461م) دورا هاما في تعزيز مكانة الكنيسة الغربية بسبب مواقفه الشجاعة التي اتخذها في مواجهة العديد من المشاكل لعل الأهم فيها الدور الذي لعبه في مفاوضاته مع أتيلا و إقناعه للانسحاب من مدينة روما.كما ساهم في التخفيف من حدة الاحتلال الوندالي لروما سنة 455م. كما يرجع له الفضل في تنظيم الكنيسة روحيا و إداريا ارتقت الكنيسة البابوية بواسطتها و رسخت سلطتها في الغرب الأوربي، كذلك دور البابا غريغوري الأول (590–604م) الذي تحقق في عهده للبابوية سيادتها الفعلية بفضل جهوده في الدفاع عن مدينة روما بعدما غابت السلطة السياسية، كما قام بنشر المذهب الكاثوليكي بين القوط و اللمبارد و السكسون، كما كان له الفضل في ان تدين جميع الكنائس الغربية لسلطته بوصفه خليفة القديس بطرس، كما وضع برنامجا سارت عليه البابوية على مدى القرنين من الزمن، حيث عمد إلى عقد تحالفات مع الأديرة البندكتية من جهة و تحالف مع مملكة الفرنجة في غاليا من جهة ثانية،إن تعاقب هذه الشخصيات القوية على الكرسي البابوي أسهم في بروز البابوية و تحقيق سيادتها السياسية و الدينية في الغرب الأوربي.[2]

– التجاء بعض الأساقفة إلى أسقف روما لاستئناف الأحكام القضائية التي أصدرتها المجامع الدينية الإقليمية بحقهم، و مثال ذلك التجاء القديس أثناسيوس بطريرك الإسكندرية إلى بابا روما لإعادة النظر في الحكم الصادر ضده في مجمع صور سنة 334م.

[1] – عبد القادر أحمد اليوسف: **العصور الوسطى الأوروبية**، المكتبة العصرية،صيدا،1967،ص:58–63.

[2] – المرجع نفسه،ص 64–66.

– وجود دعم سياسي و عسكري من أباطرة روما إلى جانب البابا من خلال دعم سلطته ففي سنة 455م أصدر الإمبراطور فالنتينيان الثالث مرسوما يقضي بخضوع جميع أساقفة الغرب الأوربي لبابا روما.

– سقوط عرش مدينة روما الإمبراطوري في يد البرابرة سنة 476م جعل من البابا سيدا سياسيا وحيدا في الغرب الأوربي، كما كان في نفس الوقت بعيدا عن سلطان الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، و هكذا أدى زوال سلطة الإمبراطورية من الغرب إلى حلول البابوات محل الأباطرة في روما. و من نتائج الغزوات الجرمانية على أوربا حلول الظلام و الخوف، بينما ظل الكرسي البابوي كمنارة مضيئة في ظلام دامس، بحيث ظل البابوات و رجال الدين وحدهم يعرفون القراءة و الكتابة و شكلوا طبقة مثقفة وجهت كل اهتمامها لمصلحة الكنيسة البابوية. [1]

– انقسام الكنيسة الشرقية بعضها على بعض بسبب نشوب خلافات عقائدية بين كنيسة القسطنطينية و بين كنائس الشرق، ففي غمرة هذا الصراع المذهبي كانت كل واحدة من تلك الكنائس تحاول كسب كنيسة إلى جانبها.

– انتصار البابوية عقائديا في نضالها ضد سياسة منع تقديس الأيقونات على الكنيسة الشرقية، و التي كان يمارسها الإمبراطور البيزنطي ليون الإيسوري و ابنه قسطنطين 5 ففي سنة 787م أقر المجمع المسكوني السابع بالعودة إلى تقديس الأيقونات فرحبت البابوية بهذا القرار، و اعتبرته انتصارا لها على الكنيسة الشرقية و هذا ما رسخ بدوره السلطة البابوية في الغرب الأوربي.[2]

– تركز الثروات الواسعة و الكبيرة لدى البابا أثر بشكل واضح في زيادة النفوذ و السلطة، حيث أصبح الملك البابا يفوق في الفخامة و العظمة قصور ملوك أوربا هذا بالإضافة إلى استخدامه لعدد كبير من الموظفين لخدمته و لتنفيذ توجيهاته. هذه الثروة وفرت للبابوية قاعدة اقتصادية لترسيخ سلطة البابا و استقلاله سياسيا و دينيا و اقتصاديا، كما مكنت تلك الموارد المالية من تجييش الجيوش أحيانا للدفاع عن سلطته و ممتلكاته.[3]

---

[1] – نعيم فرح: المرجع السابق،ص185.

[2] – نوري الربيعي: المرجع السابق،ص113.

[3] – نعيم فرح : المرجع السابق،ص 188.

2– تطور نظام البابوية:

من خلال كل العوامل السابقة تبلور المذهب الكاثوليكي في روما منذ سنة 1054م خلال عهد البابا ليو التاسع(1049–1055م) و كانت الكنيسة في روما قد استمدت سلطانها من خلال وراثتها للقديس بطرس الرسول، و من هنا تمتع البابا بالنفوذ الديني و السياسي على جميع أباطرة و ملوك أوربا الغربية، يدعمه في ذلك الأملاك الواسعة من الأراضي حتى يمكن القول أنه في تلك الحقبة كان أكبر إقطاعي في أوربا العصور الوسطى.

– بدأت مظاهر الفساد و الضعف تنتشر في البناء العام لإدراة الكنيسة منذ بدايات القرن الحادي عشر الميلادي، حيث غدا منصب البابا عرضة للتنافس بين أصحاب النفوذ، إلى الحد الذي صار فيه يباع و يشترى، في حين أن مظاهر الترف و الفساد و الترهل الاداري صارت من السمات اللازمة للفعاليات الادراية الكنسية، و لم ينقذ الكنيسة من هذه الأوضاع التي ألمت بها سوى وصول البابا ليو التاسع و البابا غريغوري السابع (1073–1085) الّذين أعادا للكنيسة بعضا من هيبتها ووقارها.[1]

– ظهر صراع بين الكنيسة و الإمبراطورية نتيجة العلاقة المرتبكة بين البابا غريغوري السابع و الإمبراطور هنري الرابع، إذ أقدم البابا سنة 1075م بإصدار قرار يقضي بعدم جواز تدخل الإمبراطور في تنصيب رجال الدين، ليعمد الإمبراطور إلى جمع رجال الدين في مجمع **وومز** سنة 1076م لإصدار قرار يقضي بخلع البابا من منصبه في حين أصدر البابا حرمانا كنسيا بحق الإمبراطور و إخراجه من الرعية المسيحية، فكان رد فعل الإمبراطور الذهاب بنفسه إلى البابا في روما، و طلب منه الصفح و المغفرة و يطلق المؤرخون على هذه الحادثة ب كانوسا و التي تشير إلى انتصار الكنيسة على سلطات الإمبراطور.[2]

– تمكنت الكنيسة بعد حادثة كانوسا من فرض نفوذها على الواقع السياسي من خلال شخصية البابا أوربان الثاني(1088–1099م) الذي نادى بقيام حملات صليبية على المشرق الإسلامي في مؤتمر كليرمونت 1095محيث قام البابا بتهديد ملوك أوربا بالحرمان الكنسي إن لم يشاركوا في هذه

[1] – أحمد اليوسف: المرجع السابق،ص68.

[2] – نوري الربيعي: المرجع السابق،ص115.

الحملة، كما اعتبر البابا أنوسنت الثالث(1198-1216م) جميع أباطرة و ملوك أوربا مجرد أتباع له.

– لم تدم الأحوال لصالح الكنيسة، إذ تمكن ملك فرنسا فليب الوسيم (1258-1314م) من تحقيق انتصار على البابا يونيفاس الثامن(1294-1303م) لتبدأ مرحلة الأفول حيث تم نفي البابوات خارج روما للفترة الواقعة ما بين (1305-1378م)فيما استوعب الرعايا المسيحيون الدرس، حين فهموا ان الكنيسة لم تعد تمثل السلطة الروحية، بقدر ما أضحت مؤسسة سياسية غايتها احتكار النفوذ و المال و السلطة.[1]

3– مؤسسات البابوية:

3–1– البلاط البابوي: يشبه بلاط الملوك و كان زعيمه البابا سياسيا و دينيا و لقب نفسه بعدة ألقاب منها الحبر الأعظم و ملك الملوك و أمير الأمراء. و مع مرور الوقت تحول إلى جهاز حكومي ينقسم لعدة إدارات منها:

- الديوان البابوي (يتشكل من موظفين إداريين)
- المندوبون البابويون(مهمتهم عقد المجامع المسكونية)
- المحكمة البابوية (استئناف القضايا الكنسية)
- الإدارة المالية و الإيرادات (جمع الأموال من: موارد و ممتلكات البابوية في ايطاليا، موارد الحقوق الإقطاعية السنوية للأديرة، ضريبة الأساقفة لتحريرهم من رئيس أساقفة منطقتهم، بيع الوظائف الدينية، جمع الأموال أثناء الحروب الصليبية، بيع صكوك الغفران)[2]

3–2– الكنيسة: يتم تأسيسها بواسطة أساقفة أو حكام علمانيين، أما دخلها فيستأثر به مؤسس الكنيسة مع صرف جزء من الدخل للقسيس الذي يرعى شؤونها، و منذ القرن 8 م فرضت الكنيسة ضريبة العشور على جميع مستثمري الأراضي، تصرف على ترميم الكنيسة و الباقي يأخذه رجال الدين– طبقة الإكليروس–، أما عن المناصب الكنسية فيمكن ذكرها بالترتيب كالآتي: البابا :(اعلي منصب في السلطة الدينية)، الكاردينال: (المستشارون)، رئيس الأساقفة أو مطران: (ظهر في القرن 7م لحاجة الربط بين البابا و الأساقفة و عادة ما يكون في إقليم وسط)،الأسقف:

[1] – نوري الربيعي: المرجع السابق،ص: 116.

[2] – نعيم فرح: المرجع السابق،ص: 189-191.

(الرئيس المباشر للقسيس يقيم في المدينة في كنيسة مركزية)، القسيس:(يكون في القرية و مهمته الربط بين الكنيسة و الرعية)، الشماس: (و هو مساعد خارجي للقسيس و يعتبر أقل مرتبة في الهيئة الكهنوتية)، الراهب : (و هو مساعد الشماس و مهمته داخلية فهو مخصص للعبادة).[1]

3–3– الديـر: تعتمد الديرية على حياة الانعزال و التقشف و التأمل و كانت بواكيرها قد ظهرت في القرن الثالث الميلادي في مصر، و كانت بدايتها بمبادرات فردية من بعض رجال الدين، و اتخذوا من المغاور و القفار و قمم الجبال مقرا لهم للعبادة، تقوم فكرة الديرية على ثنائية الروح و الجسد، و على هذه العاقة كبت حاجات الجسد من أجل بلوغ مرحلة طهارة الروح.و من الذين أسسوا لها نجد الراهب أنطوني ت356م و الراهب باخوميوس ت346م و الراهب باسيل ت379م حيث عملوا على تنظيم شؤون الديرية.

و في القرن الرابع الميلادي تم إدخال فكرة الديرية إلى ايطاليا بجهود الراهب أثناسيوس، إلا ان انتشارها لم يتم سوى في القرن السادس الميلادي على يد القديس بندكت ت 543م حيث عمل على تنظيم الديرية و أسس أول دير سنة 529م بمنطقة مونت كاسيغو الذي أصبح النموذج الذي يقتدى به في الغرب الأوروبي.

و على الرغم من حياة البساطة و الزهد الذي قامت عليه الحركة الديرية، إلا أنها لم تكن بمنأى عن وصول المفاسد و الانحلال إلى بنيتها العامة،لاسيما بعد نهاية إمبراطورية شارلمان ظهرت العديد من حركات الإصلاحات على يد رجال الدين منها: الحركة الكلونية 910م، الحركة الكارميترزياتية 1084م، و حركة السترسيانية ق 12م، الحركة الدومينيكانية1212م الحركة الفرنسيسكانية 1223م.[2]

[1] – نعيم فرح: المرجع السابق، ص192–195؛ نوري الربيعي:المرجع السابق،ص111.

[2] – أحمد اليوسف: المرجع السابق، ص74؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص: 116–119.

الإسلام و علاقته بأوروبا العصور الوسطى

كان انتشار الإسلام عاملا حاسما في تشكيل تاريخ العصور الوسطى، ذلك أنه أدى إلى تقسيم عالم البحر المتوسط إلى حضارات ثلاثة هي : البيزنطية و الأوروبية و الإسلامية، و كان اللقاء و التفاعل بين هذه المجتمعات الثقافية و الاقتصادية و الدينية الثلاث، و أحد أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى.[1]

و هنا نتساءل كيف كانت العلاقة بين الإسلام و تاريخ أوروبا في العصور الوسطى؟

– على الرغم من أن الإسلام يعتبر ظاهرة شرقية من الناحيتين الدينية و الحضارية إلا أن أثره في أوربا العصور الوسطى كان خطيرا بحيث لا يمكن تتبع تاريخ أوربا في تلك العصور دون الإشارة إلى هذا الأثر.

– أن الدولة الإسلامية في أقصى اتساعها لم تضم سوى أجزاء من أوربا مثل اسبانيا و صقلية و بعض جزر المتوسط، لكن بالمقابل كانت الدولة الإسلامية تضم جميع البلاد المطلة على شواطئ الجنوبية و الشرقية للبحر المتوسط، أي بلاد الشام و شمال إفريقيا.

– أن حركة الفتح الإسلامي ترتب عليها تحطيم الوحدة الحضارية للبحر المتوسط و هذا ما جهل المؤرخ **بيرين** يختار هذه الحركة بداية حقيقية للعصور الوسطى و حدا فاصلا بينها و بين العصور القديمة.

– لابد من الإشارة إلى أن هناك اختلاف بين الغزوات التي تعرضت لها أوربا من جانب المسلمين منذ القرن 7م في طابعها و هدفها و نتائجها. عن تلك التي تعرضت لها أوربا قبل ذلك من جانب القبائل الجرمانية.[2]

– نظر بعض الباحثين إلى انتشار الإسلام في أوربا على أن السبب من ورائه أسس اقتصادية بحتة، و نجد منهم **بيكر** الذي يربط حركة الفتح الإسلامي بتقلب الأحوال الاقتصادية و ما أصاب بلاد

[1] – نورمان ف. كانتور: **التاريخ الوسيط قصة الحضارة: البداية و النهاية**، ترجمة و تعليق: قاسم عبده قاسم، ط5، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية،مصر،1997،ص195.

[2] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص94.

العرب من ضعف و تدهور ابتداء من انهيار سد مأرب في القرن 6م، و يؤكد هذا الطرح **توماس أرلوند** حيث يعبر عن هذه الفكرة تعبيرا أكثر جرأة و أوضح صراحة بقوله:" إن حركة التوسع العربي كانت هجرة جماعة نشيطة دفعها الجوع و الحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة و تجتاح بلاد أكثر خصبا" و هنا نتساءل هل نصدق توماس أرلوند في القرن 20م أم نصدق حاكما رومانيا معاصرا في القرن السابع الميلادي، فقد أرسل إليه الإمبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد هجمات المسلمين فرد عليه قائلا:"...إنهم أقل منا عددا و لكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا، ذلك أنهم لا يطمعون في شيء من لذات الدنيا و يكتفون بالكساء البسيط و الغذاء البسيط،هذا في الوقت الذي يرغبون في الاستشهاد لأنه أفضل طريق يوصلهم للجنة، في حين نتعلق نحن بأهداب الحياة و نخشى الموت يا سيدي..."و هنا نستنتج أن سبب الفتوحات الإسلامية عقائدي ديني و هذا ما يؤكده المؤرخ بيرين حيث يقول أن الحماسة الدينية هي وحدها التي أدت إلى نجاح العرب في حركتهم التوسعية و لم تتوقف.

– تزامنت الدعوة الإسلامية مع اشتداد الصراع البيزنطي الفارسي، بحيث كان كل من الروم و الفرس في شغل شاغل بالنزاع و الحروب المستمرة فيما بينهم عن الاهتمام بما كان يجري في شبه الجزيرة العربية من **مولد الرسول صلى الله عليه وسلم** سنة 570م و هجرته للمدينة سنة622م ثم ما تبع ذلك من إنهاء حالة الفوضى و التفكك و النزاع القبلي بفضل رسالة خاتم النبيين أدت إلى جعل العرب أمة واحدة يخضعون لحكومة واحدة و يدينون بدين واحد شعاره **لا إله إلا الله محمد رسول الله** و الذي كانت مهمته نشر الإسلام في بلاد العرب و الأمم المجاورة من أجل اعتناق ديانته و الإيمان برسالته، و كان لإعراض و امتهان الرسل الذين أوفدهم النبي **محمد صلى الله عليه وسلم** من قبل الفرس و الروم سببا كافيا للإعداد للغزو و الجهاد. [1]

– ترجع بدايات العلاقات بين الروم – البيزنطيين– و المسلمين إلى التحرك البيزنطي المضاد للإسلام في عصر الرسالة نفسه، فمنذ العام الخامس للهجرة عبر معارك دومة الجندل و مؤتة و تبوك و انتهاء بحملة أسامة بن زيد رضي الله عنه كان معسكر البيزنطي يتحسس الخطر القادم من جنوبه، غير أن الغزوات الإسلامية اشتعلت أكثر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فتدفقت

[1] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 95-101.

القوات الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة و بدأت تسيطر على أجزاء كبيرة من أسيا و إفريقيا، ففي العهد الأموي استمرت هذه الحركة الدؤوبة في كل من بلاد الشام و مصر و شمال إفريقيا و هكذا انحصر الوجود البيزنطي في شبه جزيرة الأناضول فضلا عن مملكتهم في أوربا نفسها، لتتواصل المواجهات في معركة ملاذكرد التي حقق فيها السلاجقة سنة 463هـ في قلب الأناضول نجاحا على العمود الفقري للقوات البيزنطية فكانت الضربة القاضية،و من هذا التاريخ ضعفت و تهلهلت و لم يجد الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس بدا إلا طلب المساعدة من الغرب الكاثوليكي و هنا لم يجد آذانا صاغية و حسب، بل شهية مفتوحة.[1]

1– مملكة الإفرنج[2] و علاقتها بالمسلمين:

بدأ الاحتكاك بين المسلمين والفرنجة (486–751م) منذ أواخر القرن الأول الهجري، عندما فتح المسلمون الأندلس 91هـ/711م، وحازوها من أيدي القوط النصارى، ثم شرعت فتوحهم في التمدد خلف جبال البرانس ، والتي تفصل شمال إسبانيا عن جنوب غالة(فرنسا) خصوصا، وبقية القارة الأوروبية عموما.

و يعتبر موسى بن نصير هو أول من عبر جبال البرانس، ودخل جنوب فرنسا؛ ليستكمل فتوح أوروبا من الغرب من جهة، وليقطع الإمدادات التي تتدفق من جنوب فرنْسا إلى بقايا القوط المعتصمين بالمناطق الجبلية الوعرة بشمال الأندلس من جهة أخر، إذ كانت مدن مقاطعة لانجدوك بجنوب غالة في تبعية لملوك الأندلس القوطيين قبل عملية الفتح الإسلامي.

و قد وصلت الفتوح الإسلامية أقصى مداها في الأراضي الفرنجية على يد ولاة بني أمية في العقدين الأولين من القرن الثاني للهجرة ، حيث استطاع عدد من الولاة النجاح في توسيع دائرة الفتح في جنوب و وسط غالة ، حتى كادوا أن يصلوا إلى عاصمة فرنسا حاليا مدينة باريس ، والتي صارت في يد الفتح الإسلامي؛ إذ لم يبق بين فتوح أمير الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي (107–110هـ) و بين باريس إلا ما يقارب 30 كلم، و لم يستطع الجيش الفرنجي توقيف حركة

[1] – عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 102–104.

[2] – للاطلاع على حيثيات تأسيس مملكة الفرنجة ينظر: عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص 145 و ما بعدها، نوري الربيعي: المرجع السابق،ص:45–54.

الفتح التي قادها عنبسة، و إنما عاد أدراجه من أجل القيام ببعض الشؤون الداخلية في الأندلس، و في طريق عودته استشهد. [1]

ثم قاربت فتوح أمير الأندلس بعده عبد الرحمن الغافقي سنة 112هـ مدينة باريس بما لايزيد المائة كيلو متر، ودخلت مدن سانس، وفاكون، وشالون، وأوزة، وديجون، وأتون، وغيرها في حوزة المسلمين، وأصبحت ضفاف أنهار الرون، والصاوون، ولالوار تحت سيادة ولاية الأندلس الإسلامية التابعة للخلافة الأموية آنذاك، و ما كاد يخرج الجيش الإسلامي من بواتييه في طريقه نحو باريس حتى فوجئ عبد الرحمن الغافقي بوصول جيش هائل من الفرنج و المرتزقة يقوده شارل مارتل – المطرقة– فكانت معركة بلاط الشهداء سنة 114هـ/732م التي استشهد فيه عبد الرحمن الغافقي و استمرت المعركة 8 أيام انتهت بانهزام الجيش الإسلامي، و على الرغم من هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء فقد بقيت حامية عسكرية في مدينة أربونة جنوب غربي فرنسا نحو عشرين سنة محتفظة بذلك البلد، و لم ينسحب المسلمون من غالة تماما إلا بعد قيام الدولة الأموية في الأندلس سنة 138هـ/756م. [2]

2– إمبراطورية شارلمان[3] و علاقتها بالمسلمين:

واصل شارلمان سياسة والده وجده في قتال مسلمي الأندلس، وسعى لإخراجهم منها بعد أن نجح جده في إيقاف الزحف الإسلامي المتصاعد في فرنسا، ونجح والده في القضاء على الوجود الإسلامي في جنوب فرنسا، وواصل شارلمان ما بدأ في عصر والده من دعم أمراء شمال الأندلس الثائرين على أمراء الأندلس من بني أمية.

وقد فشل شارلمان في حملاته الضخمة التي قادها على الأندلس غير مرة مثلما حدث سنة 788م عندما فشلت القوات الكارولنجية في السيطرة على بعض المناطق الساحلية، إلى أنه استطاع انتهاز فرصة الصراع الدائر على الإمارة في الأندلس عقب وفاة هشام بن عبد الرحمن الداخل سنة

---

[1] – ابن عذاري المراكشي :**البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب** ،تحقيق:ج.س.كولان و إ. ليفي بروفنسال،ط3،دار الثقافة، بيروت، لبنان،1983، ج2،ص:27.

[2] – المصدر نفسه،ص28؛ محمد عبد الله عنان: **دولة الإسلام في الأندلس**، ط2 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1990،ج1،ص:92-111؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص147؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص: 45-54.

[3] – للإطلاع على حياة الإمبراطور شارلمان ينظر: اينهارد: **سيرة شارلمان**، ترجمة :عادل زيتون، دار حسان للطباعة و النشر،دمشق،1989،ص 52 و ما بعدها.

801م، وتمكن من السيطرة على بعض مناطق في الشريط الضيق بشمال الأندلس، مثل إقليم كاتالونيا، وكانت قاعدتها مدينة برشلونة التي استسلمت بعد حصار طويل شاق، وإقليم جاسكونيا الذي كان يشمل أراغون، ونافار، كما حاول شارلمان اقتحام مدينة سرقسطة، ولكنه أقلع عنها بعد حصار طويل.

لكن أغلب المناطق الحدودية ظلت مناطق ملتهبة، يسودها القلق، والترقب، ولم يحدث حسم عسكري فيها لصالح أي من الفريقين، وتتابعت غزوات المسلمين إلى جنوب فرنسا بعد سقوط قواعدهم فيها فترة من الزمن، حتى أن جيشا إسلاميا أرسله هشام بن عبد الرحمن الداخل قد عبر جبال البرانس، واجتاح العديد من المدن الجنوبية الفرنسية، وهزم جيوش الفرنجة، وواصل توغله في أراضيهم، حتى بلغ إقليم برطانية بشمال غرب فرنسا، وعاد مُثقلا بغنائم وفيرة، كما وصلتها فيما بعد غزوات المنصور ابن أبي عامر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، بيد أن تلك الغزوات لم ينتج عنها شيء من عودة الجنوب الفرنسي إلى حَوزة المسلمين، وإنما كانت للنكاية، وقَطع الإمدادت عن نصارى الشمال، وحيازة الغنائم الوفيرة.

كما سعت بعض الجزر النصرانية بالبحر المتوسط مثل كورسيكا، وسردانية، وجزر البليار الواقعة شرق الأندلس إلى الدخول في طاعة الإمبراطور الفرنجي شارلمان؛ لحمايتها من الغزو الإسلامي، ووقعت وقائع بحرية كثيرة بين المسلمين والفرنجة في نطاق تلك الجزر.[1]

[1] – سعيد عمران : المرجع السابق،ص 1754–176 ؛ عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق،ص: 160–173؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص:56.

الصراع بين البابوية و القوى السياسية في الغرب

1– علاقة البابوية بدولة الفرنجة:

قام بيبين القصر بتعزيز علاقاته مع الكنيسة، في سبيل إضفاء الشرعية الدينية على طموحاته السياسية، بحيث أرسل وفدا رسميا إلى الباب زكرياء 752/741م يسأله عن من هو الأحق بالملك الملك الضعيف أم الملك القوي، و هنا نلاحظ ميل البابا لصالح بيبين القصير على حساب شلدريك حيث قام بعزله سنة 751م لينهي حكم الدولة الميروفنجية، ووقف بيبين القصير إلى جانب الكنيسة في صراعها مع اللمبارد من أجل استرجاع ممتلكات و مقاطعات الكنيسة منها رافينة و دوقية روما و منحهما للكنيسة وفق ما يسمى **هبة بيبين**.

2– علاقة البابوية بإمبراطورية شارلمان:

بنيت علاقة متينة بين الكنيسة و شارلمان، الأمر الذي حال دون تنفيذ طلب اللمبارد الذين زعموا أخوة كارلومان لشارلمان، فما كان من اللمبارد إلا الهجوم على أراضي الكنيسة في ايطاليا و احتلالها، فتوجه البابا ستيفان الثالث 772/768م إلى شارلمان طالبا الحماية فترك شارلمان حربه مع السكسون و لبى نداء البابا سنة 773م.

– دعمه للبابا ليون الثالث عندما ثار عليه النبلاء سنة 795م و تبرئته فكافئه بوضع تاج الإمبراطورية الرومانية الغربية في ديسمبر 800م دون أن يكون لشارلمان علم مسبق.

– أصبح البابا ابتداء من سنة 802م تابع لنفوذ الإمبراطور و أصبح واحد من الرعايا الذين يدينون بالولاء إلى الإمبراطور.[1]

كان انهيار الإمبراطورية الكارولنجية وسقوطها كارثة حقيقية على البابوات و الكنيسة الغربية ، نظراً للنتائج الخطيرة التي ترتبت على البابوية ومستقبلها الروحي و الاقتصادي و السياسي و أهمها: لقد فقدت البابوية حلفائها التاريخيين الذين كانوا يدرؤون عنها الأخطار حيث تجددت غارات الفيكنغ و المجريين كما انتشر الرعب وسادة الفوضى و انعدم الأمن في الداخل .كما تعرضت

[1] – نوري الربيعي: المرجع السابق،ص:52، 56-60.

البابوية إلى تسلط العلمانيين من ملوك وحكام و أمراء و إقطاعيين، إن تسلط العلمانيين على الكنيسة وانهيار البابوية أدى إلى تفشي ثلاثة من الأمراض الخطيرة في الجهاز الكنسي وهي : السيمونية، زواج رجال الدين، و التقليد العلماني.

3– علاقة البابوية بفرنسا:

حاول فليب أوغسطس استقلال مملكته خصوصا في المجال الديني، فقد حرص على استقلال الكنيسة الفرنسية و عمد إلى التقليل من نفوذ البابا و ذلك بسحب الامتيازات الخاصة التي تمتع بها رجال الدين، و هنا حدث تحالف ضده بين رجال الدين و العلمانيون أبناء الطبقة الوسطى(البرجوازيون) و كذلك الإقطاعيون. [1]

– كانت علاقة الملك فليب الرابع المعروف بالوسيم 1285–1304م مع الكنيسة يسودها الارتباك لفرضه الضرائب على رجال الدين، و هذا ما أدى بالبابا يونيفيس الثامن إلى إصدار قرار سنة 1296م يقر بطلان الضرائب على رجال الدين، بالمقابل أصدر الملك قرار سياسي انطوى عل معارضة الكنيسة، و الذي ينص على رفض استقبال الأجانب في فرنسا لتجنب مقابلة مندوبي البابا، هذا بالإضافة إلى منع إخراج الأموال و العملة الفرنسية إلى خارج حدود الدولة، و هذا من أجل عدم وصول الأموال الفرنسية إلى خزانة الكنسية الكاثوليكية في روما، لكن الأوضاع لم تدم على هذا الحال فبوفاة البابا يونيفيس سنة 1303م تحسنت العلاقة بين الملك الفرنسي والبابا بندكت الحادي عشر. [2]

4–علاقة البابوية بألمانيا:

علاقة كانت علاقة الكنيسة بالسلطة السياسية في ألمانيا حسنة، ففي عهد الملك أوتو الكبير 936–973م أبرم تحالف مع الكنيسة التي منحته لقب الإمبراطور سنة 962م على يد البابا يوحنا الثاني عشر، بعد أدائه للقسم في كنيسة بطرس، تعهد أوتو الكبير باحترام الكنيسة لكنه فيما بعد بدأ يتدخل في شؤون الداخلية للكنيسة و حتى في أموال الكرسي الرسولي، و لم يخضع البابا

[1] – أحمد اليوسف : المرجع السابق،ص195.

[2] – نوري الربيعي: المرجع السابق،ص 72.

لسلطته و نفوذه فحسب،بل تعدى الأمر إلى انه أصدر قرار يقضي بأن البابا يجب أن يقسم يمين الولاء أمام الإمبراطور، و إلا فإن شرعيته ستكون منعدمة، و منع أصبح البابا مجرد تابع يستلم المهام و الأوامر من الإمبراطور، و رغم محاولة البابا يوحنا الثاني عشر التخلص من نفوذ البابا بكل ما أتيح له من وسائل لكنه فشل و تم تنحيته من طرف الإمبراطور سنة 963م

-كما سيطر الإمبراطور هنري الثالث 1039-1056م على الكنيسة بحيث أصبح يعزل البابوات و يعينهم وفق المصلحة الخاصة.

- شهد عهد الإمبراطور هنري الرابع 1056-1106م صراعا محتدما بين الإمبراطورية و الكنيسة، و قد تصاعدت حمى الصراع حين عمد البابا غريغوري السابع إلى إصدار قرار سنة 1075م و الذي يرفض فيه بشكل قاطع تدخل العلمانيين في الشؤون الدينية، و لا يجوز للحاكم السياسي أن يقدم المناصب الدينية، لم يطق الإمبراطور صبرا إزاء هذا القرار، حيث عقد مجمعا دينيا سنة 1076م قضى بطلان بابوية غريغوري السابع، و بالمقابل عقد البابا مجمعا دينيا في روما، قضى بحرمان الإمبراطور من رحمة الكنيسة. أما الأمراء الإقطاعيون في ألمانيا فقد حرصوا على استثمار هذا النزاع لصالحهم حين رهنوا طاعتهم للإمبراطور برضا البابا عليه، و في ظل احتدام الصراع، لم يجد الإمبراطور سوى التوجه إلى روما حيث البابا، طالبا المغفرة سنة 1077م وعرفت هذه الحادثة باسم كانوسا التي توحي بانتصار سلطة الكنيسة على سلطة الإمبراطور.

مأساة كانوسا :

قرر " هنري الرابع" مصالحة البابا لذلك خرج من الدير سراً وتوجه نحو الغرب وعبر جبال الألب حتى وصل إلى قلعة " كانوسا" التي كان يقيم فيها البابا " جريجوري السابع ، عند "ماتيلدا" ، وعلم البابا بتوجه " هنري الرابع" إليه ، و وصوله إلى قلعة " كانوسا" ، تركه يقضي ثلاثة أيام في الثلج على باب القلعة ، ثم فتح له باب القلعة ، وحصل بالتالي على العفو و الغفران من البابا ، وبعدها عاد" هنري الرابع " إلى ألمانية وعاد البابا إلى " روما " . [1]

[1] – نعيم فرح: المرجع السابق،ص126؛ أحمد اليوسف: المرجع السابق،ص155؛ نوري الربيعي: المرجع السابق،ص81-84.

5– علاقة البابوية بإنجلترا: شهدت علاقة انجلترا مع الكنيسة عدة محطات يمكن إيجازها فيما يلي:

– في عهد وليم الثاني 1087–1100م قام بعدة محاولات للاستحواذ على أموال الكنيسة، كما قام بجعل منصب رئيس الأساقفة شاغرا مما ساهم في نفور البابا، كما كان يتوجه للكنيسة طلبا للأموال لدعم حملته العسكرية على ويلز تارة و تارة أخرى من أجل دعم الحملة الصليبية سنة 1096م، إن أهم مشكلة وقعت بينه و بين الكنيسة تمثلت في بروز الخلاف في روما حول تحديد المنصب البابوي بين باسكال الثاني و ألبرت، فطلب وليم الثاني من الأسقف تحديد موقفه من هذا النزاع إلا أن الملك تدخل في هذا الأمر رافضا أن يقطع الأسقف برأي من دون الرجوع لاستشارته مما أدى إلى استقالة الأسقف من منصبه لتبرز العديد من المشكلات بين الملك و الكنيسة. [1]

– و تكرر الأمر مع الملك هنري الأول1100–1135م عندما رفض الأسقف انسلم تقديم يمين الولاء له،فتفاقمت الأمور إلى حد خطير، بلغت بالأسقف إلى إصدار مرسوم الحرمان في حق الملك، لولا تدخل الوسطاء فانتهت هذه المشكلة بضع اتفاق بك سنة 1106م الذي يقضي بعدم تدخل الملك في تعيين رجال الدين في المناصب الكنسية.

– أما في عهد الملك هنري الثاني 1154–1189م حدث صراع بينه و بن أسقف كنتربري توماس بيكيت الذي لم يستطع التوفيق بين رغبات الملك (الذي أسس **مجلس كلارندم** سنة 1166م و هو مجلس مهمته الوقوف في وجه الامتيازات القضائية التي تمنحها الكنيسة) و الكنيسة، فتعرض الأسقف للاغتيال سنة 1170م مما ولد غضب شديد و امتعاض في العالم المسيحي،لكن الملك أعلن براءته وقدم اعتذار رسمي للبابا و عمل على إصدار قرار بإلغاء العمل بنظام الكلاندرم. [2]

– أما في عهد الملك حنا 1199–1216م: حدث صراع بينه و بين الكنيسة بسب وقوف الكنيسة إلى جانب النبلاء، فبدأ يتدخل في شؤون الكنيسة من خلال تحديه لإرادة البابا في تعيين

[1] – أحمد اليوسف: المرجع السابق،ص173.

[2] – المرجع نفسه،ص178؛ نوري الربيعي:المرجع السابق،ص96.

أسقف كنتربري، و لهذا عمل البابا أنوسنت الثالث عللا إصدار أمر الحرمان في حق الملك حنا من الرحمن الكنسية سنة 1213م، و في ظل هذه الظروف القاهرة لم يجد الملك للخروج من هذه الأزمة سوى إعلان تبعيته للبابا طالبا الصفح و المغفرة من الكنيسة.[1]

نهاية العصور الوسطى الأوروبية

تعددت الأفكار حول نهاية العصور الوسطى الأوروبية، فإذا كان ما حدث في القرن الرابع الميلادي من تغييرات على المجتمع الروماني هو الذي دفعنا إلى تغيير اسم هذا المجتمع من المجتمع الروماني القديم إلى مجتمع العصور الوسطى، فإنه لابد من أن تحدث تغييرات في المجتمع الوسيط تجعلنا ننهي بهذه التغيرات المجتمع الوسيطي إلى مجتمع آخر و هو ما نطلق عليه مجتمع العصر الحديث، و مع هذه التغيرات ظهرت بعض الآراء لوضع نهاية للتاريخ الأوروبي الوسيط نذكر منها:

1– أراء حول الجوانب الحربية:

يرى بعض المؤرخين أن إنهاء العصور الوسطى بسنة 1453م و يعللون وجهة نظرهم بحادثتين وقعتا في تلك السنة، كان لهما الأثر البالغ في الشرق و الغرب الأوروبي.

أ– في الشرق: سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين، و مع سقوط المدينة أفل نجم الإمبراطورية البيزنطية.

ب– في الغرب: فيتعلق بالأحداث السنة نفسها 1453م، في هذه السنة تنتهي حرب المائة عام التي دارت رحاها بين انجلترا و فرنسا، و انتصرت فرنسا بعد سقوط مدينتي بايو و بودرو على التوالي.[2]

2– أراء حول عصر النهضة:

يعتبر بعض المؤرخين عصر النهضة فاصلا تاريخيا بين العصر الوسيط و العصر الحديث، و لعل ذلك راجع إلى أن عصر النهضة اشتمل على تطورات واسعة في كافة المجالات، ففي مجال اللغة و

[1] – أحمد اليوسف: المرجع السابق،ص: 184، 185.

[2] – سعيد عمران : المرجع السابق،ص 21.

الكتابة كانت اللغة اللاتينية هي لغة الكتابة في العصور الوسطى، لكن حدث تحول كبير حينما نادى أو كتب دانتي اليجيري باللغة الايطالية بدلا من اللاتينية.و لعل أعظم ما كتبه الكوميديا الإلهية، و يوجد العديد ممن تحرروا من اللاتينية في الكتابة باللّغة المحلية كالفرنسية و الإنجليزية.[1]

3– أراء مرتبطة بالجانب الديني:

لقد كان الخروج على الكنيسة و أفكارها التي سادت مجتمع العصور الوسطى يعتبر نقلة من مرحلة إلى أخرى، لذلك يرى البعض أن حركة الإصلاح الديني و مهاجمة رجال الدين لبعدهم عن أخلاق المسيحية و بساطتها نهاية العصور الوسطى، و من الذين نادوا بالإصلاح الديني نجد: يوحنا هس ت 1415م المصلح الديني الذي اتهم بالهرطقة و أعدم حرقا، و أيضا المصلح الديني البوهيمي يوحنا ويكلف ت1384م الذي أنكر سلطة البابا و اتهم بالهرطقة، و يعتبر هؤلاء ممن مهدوا لدعوة مارتن لوثر (1483–1546م) الراهب الألماني الذي تزعم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا.لذا يمكن أن نعتبر هذا التطور حدا فاصلا بين عصرين أو عهدين مختلفين دينيا.

4– آراء حول الكشوفات الجغرافية:

لقد ترتب عن الكشوفات الجغرافية سنة 1492م نتائج في جميع المجالات كان لها الأثر البالغ في مجتمعات أوربا في العصور الوسطى و حتى في العالم أجمع، لذا عدت نهاية للعصور الوسطى، و من هذه الكشوفات الجغرافية ما قام به الملاح البرتغالي دياز(1450–1500م) باكتشافه طريق رأس الرجاء الصالح سنة 1487م، و فرديناند ماجلان (1480–1521م) الذي يعتبر أول من قام برحلة حول العالم، و في هذا المجال أيضا لمع البحار كريستوف كولومبس (1451–1506م) الذي يعتبر أيضا أول من اكتشف أمريكا الجنوبية دون أن يدري سنة 1492م و لهذا يتخذ أصحاب هذا الرأي هذه السنة منطلقا لعصر جديد و نهاية للعصور الوسطى لما ترتب على هذه الكشوف من نتائج في المجالات السياسية و الاقتصادية بصفة خاصة، و في المجالات الفكرية بصفة عامة. [2]من خلال هذا العرض لأهم الآراء التي دارت حول نهاية العصور الوسطى، يمكن اتخاذ القرن الخامس عشر نهاية للعصور الوسطى نظرا لما حدث في هذا القرن من تطورات فكرية و سياسية و دينية و اقتصادية و اجتماعية أدت إلى الانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث.

[1] – سعيد عمران : المرجع السابق،ص 21، 22.

[2] – المرجع نفسه، ص: 22–24.

المؤلف في سطور

الأستاذ الدكتور: عبد الغني حروز

أستاذ بقسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة محمد بوضياف بالمسيلة، حاصل على شهادة الأستاذية في التاريخ من جامعة محمد بوضياف بالمسيلة؛ باحث في الحضارة العربية الإسلامية في المشرق والمغرب خلال العصر الوسيط، مهتم بتراث الغرب الإسلامي (النقلي والعقلي) ؛ له مشاركات علمية في ملتقيات وطنية ودولية، كما له العديد من المقالات العلمية في المجلات الوطنية والدولية.

محاضرات أوروبا في العصور الوسطى

أ.د. عبد الغني حروز

ISBN: 978-9931-251-10-1

9 789931 251101

منشورات سلسلة الكتب الأكاديمية
كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية
جامعة محمد بوضياف - المسيلة

الإيداع القانوني: ديسمبر 2022